


BOBST LIBRARY
3 1142 01467 7937

تاريخ

الثورة العلوية

Yunus, 'Abd al-Latif

وقائدها

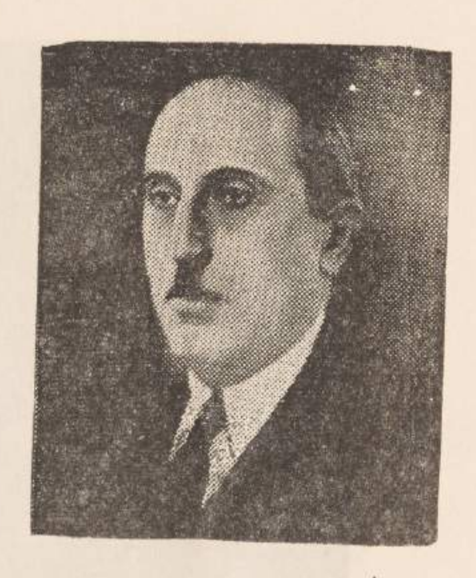
الشيخ صالح العلي

/Tarikh al-thawrah al-'Alawiyah/

بقلم

عبد اللطيف يونس

مطابع أبي الفداء - حماة



فخامة رئيس الجمهورية السورية وزعيم البلاد الاول

السيد شكري القوتلي



المجاهد الكبير وقائد الثورة العلوية الشيخ صالح العلي





المؤلف

الاهداء

إلى الرابض في ميسلون يلقّن أبناء العربية دروساً بالمثالية، والتضحية، والاخلاص.

إلى المشرف من أعلى قمم الخلود، على مواكب المجاهدين، يهديهم صراط الوطنية والقومية الصحيح.

إلى الينبوع الذي يستقي منه العقل فكرة الجهاد، وحبّ الاستشهاد.

إلى روح الشهيد «يوسف العظمة» أتشرف باهداء هذا الكتاب.

المؤلف

ايها القارئ :

إن الأكثرية الساحقة من الشعب الواعي ستقابل هذا الكتاب بالرضى ، والارتياح .

واما « القلائل » الذين سيحملون عليه فهم أحد اثنين :

إما رجل « مغرض » يكره ان يكون في هذه البلاد وطنية ، وصراحة ، وجهاد !

وإما رجل « موتور » سينقم لأننا لم نتح له الخلود على حساب الآخرين !

وأنت تعرف = أيها القارئ = أنه لا حيلة لنا باتقاء « حقد » الأول ، وإشباع « أنانية » الثاني .

وأما أنت — ايها القارئ المنصف — فاني واثق أنك ستقدّر هذا الجهد ، وستدرك أني كتبت هذه الفصول في جوٍ بعيد عن « الحزبية » و « الطائفية » و « الصداقة » واني أكثر الناس تحرُّراً منها حينما أكتب للحقيقة ، والتاريخ — والله من وراء القصد .

المؤلف

الشيخ صالح العلي

أول سوري أطلق الرصاص في وجه الافرنسيين

طلبنا من معالي المجاهد الكبير احسان بك الجابري أن يتفضل بكتابة كلمة نصدر بها هذا الكتاب.

ومعاليه — فضلاً عن أنه اليوم شخصية عربية كبرى، يشار اليها بالبنان في كل مكان، فانه كان في زمن الثورة رئيس أمناء المرحوم الملك فيصل، و كان بعدها ممثل سوريا الدائم في جامعة الأمم.

فحياته — أمد الله في حياته — يعتبرها الواقع التاريخي سفراً نفيساً من أسفار الجهاد المقدس، وتاريخاً مفصلا للاعمال الوطنية في ثلاثين سنة أو تزيد.

واذن . . . فهو على أتم اطلاع على حال الثورة، ووضعها، والمراحل التي مرت بها، والنتائج التي أسفرت عنها.

وهو بهذه المقدمة النفيسة يحدثنا عن تلك الوقائع وما أسفرت عنه من نتائج :

انه من الصعب أن يعرف المرء أهمية الثورة التي قام بها الشيخ صالح العلي + من الوجهتين المادية والمعنوية — قبل أن يعلم نوايا الفرنسيين الحقيقية، ومقاصدهم الاستعمارية، التي دفعتهم إلى دخول الحرب الكبرى بقصد الاستيلاء على ممتلكات في حوض البحر الأبيض المتوسط،

وخاصة سوريا ولبنان ، اللذين كانت تعتبرهما فرنسا مركز إشعاع لمدنيتها وثقافتها في سائر أنحاء المشرق .

ولما وقف الانكليز – اولا – في وجه مطامع الفرنسيين في جميع المؤتمرات والمفاوضات ، كان هؤلاء (يزعمون) ان السوريين واللبنانيين ينتظرون جيوشهم بفارغ الصبر !!

وانه لا يوجد في البلاد السورية واللبنانية من يرفض انتدابهم واحتلالهم !!

وقد أثبتت الوقائع فيما بعد بطلان هذه الادعاءات والافتراءات وبرهنت على ان الشعب السوري بأسره يرفض أي انتداب او احتلال .

ولهذا فقد كانت ثورة الشيخ صالح العلي صدمة عنيفة لادعاء الفرنسيين وتبجحهم ، وغرورهم . وكان لها – بالنسبة للفرنسيين – صدى سيء في المحافل الاوروبية جمعاء . وقد مُني دعاتهم بخيبة مريرة واخفاق شديد .

ولقد كنّا في جنيف نجابه الفرنسيين بذكر الثورة العلوية حينما يزعم دعاتهم المغرضون بأن العلويين يكرهون الوحدة ويريدون الانفصال . والذي يقيض له الاطلاع على سجلات جامعة الأمم يرى أننا كنا نستشهد بثورة الشيخ صالح العلي لدحض المفتريات الفرنسية، ومزاعمهم ضد العلويين خاصة والسوريين عامة .

من هذا، وهذا وحده، يستطيع القارئ ان يدرك مدى انتفاعنا من تلك الثورة العنيفة التي دامت ما ينوف على الثلاث سنوات .

وان من أعظم مزايا ثورة الشيخ صالح العلي انها استمرت مايقارب السنة بعد خروج الملك فيصل من الشام،وانقطاع المساعدات المنظمة عن الثورة . ولم يكن لها مايغذيها في فترة تلك السنة الأخيرة إلا ايمان الشيخ صالح ، وثباته ومتانة عقيدته . وما أزال أحتفظ بين مذكراتي ببعض الرسائل التي كانت تردنا من دمشق وهي مملوءة بالعزيمة الصادقة والاخلاص الشديد .

وثمة منافع أخرى كثيرة أتت عن طريق تلك الثورة ودلّت على أن فائدتها لم تنحصر ضمن نطاق معين . ومن ذلك الثورات التي قامت بعدها في جبل الدروز ، وجبل الزاوية ، وجبل عامل ،والغوطة، وحماة ، وبقية المناطق الأخرى ، والتي لم تكن الاّ بمثابة تموجات طبيعية للثورة الأولى— التي أطلق الشيخ صالح العلي رصاصتها الأولى. ولو كانت اليقظة العربية مثلها اليوم لما تخلّل تلك الثورات ما تخللها من فترات الهدوء والسكينة . ولكان مصير فرنسا الذي تقرّر منذ عامين قد تقرر منذ عشرين عاماً .

والذي يبعث على تقدير الشيخ ، واحترامه ، ان ثورته كانت

بعيدة عن الاستثمار ، وأن شخصه كان أرفع من أن تؤثر به المغريات المادية ، والمؤثرات السياسية . او ان تخرجه من عزلته للاستفادة التي التي كانت تعرض عليه في كل مناسبة ، ويعرض عنها بكل شرف وإباء .

وهو لم يتلكأ عن القيام بواجباته الوطنية حينما كانت المصلحة العامة تدعوه إلى ذلك ، بل كان يقوم بها خير قيام ، ويؤديها خير أداء . وقد لقيت منه يوم كنت محافظ اللاذقية في أصعب الظروف ، وأقسى الأحوال . أصدق معونة ، وأنبل اخلاص .

أمدّ الله في عمر الشيخ صالح العلي ، وعمر رفاقه المجاهدين . وحفظهم ،وحفظ البلاد العربية ، من كل أذى ومكروه . والله جل جلاله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

احسان الجابري



تمهيد

فكرة تأليف هذا التاريخ تساورني منذ اكثر من خمس عشرة سنة او تزيد . بل انها فكرتي الوحيدة منذ عرفت كيف أمسك القلم ، واكتب للنشر ، او منذ بدأت اقرأ التاريخ ، واتفهم قراءة التاريخ .

وقد قويت هذه الرغبة في نفسي بعد الحفلة التكريمية الكبرى التي اقيمت احتفاءً بالمجاهد الكبير الشيخ صالح العلي — قائد ثورته المعروفة باسمه في الشرق والغرب ، والتي هرعت الأمة بجميع طبقاتها القومية الواعية المشاركة بتلك الحفلة المثالية الكبرى ، وحشدت في في سبيل ذلك كل ما عندها من عواطف صادقة ، ومشاعر فائقة ، وتوفر على انجاح تلك الحفلة محافظ اللاذقية آنذاك ، العلامة الجليل الأمير مصطفى الشهابي ، وساهم بها معالي المجاهد الكبير احسان بك الجابري وكان لهذين الرجلين الكبيرين فضل كبير في انجاح تلك الحفلة ، واظهارها بذلك المظهر اللائق الأخاذ . وثمة سبب آخر لعله أقوى من هذا السبب ، وأدعى الى التأثير ، وهو اهمال أكثر المؤلفين والمدرسين أمر التحدث عن تلك الثورة رغم جبروتها الذي لم يضاه ، وعنفها الذي لم

يبار . حتى أن أكثر الطلاب السوريين يعرفون عن « عمر المختار » المجاهد الطرابلسي في المغرب ، اكثر ممّا يعرفون عن جهاد مواطنهم السوري الشيخ صالح العلي ! وانه لاهمال يحزّ في نفس الرجل المؤمن بقضيته ، المتمسك بعقيدته ، عندما يرى الفضل ينكره ذووه، ويحاربه حاسدوه .

ثمّ : ان المطالبة بهذا التاريخ من هنا وهناك لاتقف عند حد ، ولا تقع تحت حصر ، فهي مطالبة مطلقة مستمرة صارمة ، وانه لجوع قومي لايشبعه الأكرم التاريخ السائغ الطيب المذاق .

اجل : تلكم هي الأسباب ، او بعض الأسباب المباشرة للتفكير بكتابة هذا التاريخ ، وتحيّن الفرص الصالحة المناسبة لذلك .

ولكن الصعوبات التي وقفت بالأمس حائلة في طريق هذا التأليف ، أكثر من أن تعد وتحصى ، وهي هي نفس الصعوبات التي تقف حائلة اليوم ، وتكاد تحول بين الفكر ومجراه ، وترد القلم عن القرطاس في غير رفق ، أولين . ولكن الضرورة القصوى لهذا التأليف هي وحدها التي تغلبت على جميع الصعوبات ، وانتصرت على سائر الموانع والعقبات . وأما هذه الضرورة فانها مستمدة من الشعور الصارخ لحاجة الأمة إلى تاريخ لتلك الثورة العنيفة الدامية ، التي ظلت ثلاث سنوات ونصف ، بدون هوادة ، ولا سهولة ، والتي استنزفت قوى الفرنسيين

وأرغمهم على تعديل الكثير من خططهم في الشرق ؛ ومن هذه الخطط الانسحاب من كيليكيا — كما سيجيء .

وان الامة بعد أن بدأت تتنفس الصعداء بعد جهادها الدامي العنيف ، طيلة البضع والعشرين سنة الأخيرة، فانها أحوج ماتكون الى مثل هذه الأسفار التاريخية ، تضم بعضها إلى بعض ، وتشكل منها سفراً واحداً نفيساً ، وهو خميرة المستقبل ؛ وذخيرة الغد ،وهو التراث المجيد الذي يورثه الاجداد للاحفاد ولا يمكن ان تكتمل هذه الاسفار الا اذا سجلت جميعاً، وتوحدت جميعا ، واما ان تظل متفرقة ، متشعبة ضائعة ،فمعنى ذلك ان جزءا من جهادنا القومي لا نزال رهن التناسي والسلوان وان ثغرة كبيرة تتراءى من بعيد ،ويلمح من خلال فجوتها مركب النقص في بنياننا القومي العتيد.

على أن الذي وقف حائلا حتى الآن دون تحقيق هذا الحلم الجميل وتدارك هذا الاهمال البيّن ، والنقص الظاهر ، في تأليف هذا التاريخ لتلك الثورة العنيفة الجبارة ، فهو قلة الوسائل ونقص المعلومات ، وانه لما يؤسف له حقا ، ان لا يكون في متناول اليد « ثبت » موثوق لتلك الثورة الكبرى ! بالوقت الذي توجد فيه (أثبات) كثيرة لثورات — ولا نقول لحركات — قليلة الأهمية ، محصورة في نطاق سياسي ضيق ونطاق عمليّ اضيق .

بلى : توجد ثمة « أثبات » لمعارك محدوده في ذلك الاتون الملتهب، ولكنها بمحدوديتها هذه ، لا تروي ظمأ ، ولا تنقع غلة . ولا بد لمن يعمد الى كتابة مثل هذا التاريخ أن يجدّ أولا حتى تتوفر لديه اسباب الكتابة ، وتكتمل عنده المعلومات الكفيلة بابراز المؤلف وقداستوفى جميع شرائط التأليف : من احصاء للحوادث ، الى تعقيب عن مصدرها الى دقة في روايتها ، الى غير ذلك من الواجبات والمتطلبات . وهو ما عملت له جاهداً في كثير من السهر والحذر ، فاتصلت بسماحة الشيخ صالح ، قائد الثورة العلوية ، وكبير المجاهدين ، واتصلت بعـــدذلك برفاق الشيخ ، ومعاصري ثورته ، ومساعديه ، وجنوده . كما انني قد استحصلت بعد كثير من الجهد والعناء ، على بعض الكتب الاجنبية والغربية التي كتبت عن الثورة في ايجاز او اسهاب وراجعت حتى الروايات المحلية (العامية) علي استطيع الحصول على أشياء مجدية منها .

ولم اكتف بذلك كله ، بل اذعت بيانات عامة في مختلف الصحف السورية ، وطلبت من كل من له اطلاع على تلك الثورة ، او بعض أقسامها ، او عنده بعض المعلومات او الوثائق عنها ، أن يبعث بها الي حرصا على كرامة الامة ، وسلامة التاريخ . وقد وردتني رسائل كثيرة قابلت بينها وبين مالدي من معلومات ، ثم تبينت كل ما رأيته منها معقولا ومقبولا ، وموافق للحق والمنطق ، وأهملت ما عداه .

وبعد الانتهاء من التأليف، طفت على أكثر المجاهدين في اماكنهم الخاصة، وقرأت عليهم هذا التاريخ وأصغيت بكل اهتمام إلى ملاحظاتهم ومقترحاتهم، ثم ناقشتهم بها — على ضوء ماعندي من معلومات، في كثير من الدقة والصراحة والأمانة.

ولم اكتف بذلك كله ايضاً، بل بلغ بي الحرص على نزاهة التاريخ، وسلامته، اني اتصلت — حتى ببعض أعداء الثورة — من الذين اشتهروا بعدائهم لها، وحملتهم عليها، وقرأت عليهم مسودة الكتاب ثم طلبت منهم الادلاء بآرائهم، والاعراب عن أفكارهم — على ان يقتصر ذلك على الاحداث، والأبحاث، وماجريات الأمور، فلا يتعداها الى العقيدة، والفكرة، والمبدأ. ثم تبنيت - ايضاً - كل ما رأيته منها معقولا، ومقبولا، وموافقاللحق والمنطق، وأهملت ماعداه.

وما أزعم ان هذا التاريخ قد بلغ الكمال — من حيث الدقة، والتحديد، والاتقان، ولكنني أجزم انه بلغ الكمال من حيث الأمانة برواية الحوادث التي وصلت إليّ، وحصلت لديّ. وفي ذلك بعض الارضاء للضمير، والاقناع للوجدان.

وأكثر ما آسف له ان يكون ثمه مجاهدون وشهداء، أبلوا في معارك الثورة خير البلاء، ثم ضاعت أخبارهم، وطمست آثارهم، فخسر التاريخ هذه الاسماء الكريمة؛ وخسرت أسماؤهم هذا الذكر العبق الخالد.

على أنني غير مسؤول عن هذا الاهمال، ولا مطالب لهذا التقصير ولكن المسؤول والمطالب هو نفس المصادر التي استقيت منها هذه هذه الفصول والأبحاث. وأصرح علناً أنني لم أهمل اسم مجاهد واحد بُلِّغت عنه، وتيقنت انه كان من اللامعين في صفوف الثائرين.

ومن يدري؟ فقد يقدر لهذا الكتاب ان يطبع مرة ثانية، ثم لنا أن نتلافى بعض ما حصل فيه من نقص، فتجيء الطبعة الجديدة وقد بلغت الكمال، او قاربت الكمال.

والمتصلون بي = عن طريق مباشرة اوغير مباشرة = سيعجبون كيف اتسعت اوقاتي الضيقة لتأليف مثل هذا الكتاب - وانا الغارق في هذه اللجة السياسية، والمشاكل الخاصة والعامة، التي تتقاذفني صباح مساء، ولا تترك لي وقتاً قصيراً للراحة والاستجمام. وسيزداد عجبهم متى علموا أنني أنجزت هذا الكتاب خلال بضعة عشر يوماً، وانني لم أكن أتفرغ له الا بضع ساعات قبيل منتصف الليل، وبعده. وانه كان لزاماً علي ان اقدمه للمطبعة في مثل هذه السرعة الفائقة، وأنا بعيد عن مراقبة طبعه، والاشراف عليه. وان في ذلك لبعض العذر لمن يقبلون الأعذار.

وما اكتم القارئ انني قد تصرفت قليلاً، في رواية هذه الوقائع وسرد تلك الحوادث، وهو تصرف في سياق الرواية وتسلسل الابحاث

وليس في الفكرة والموضوع . فاما الفكرة ، فقد بقيت سليمة ، بدون أن تمس ، في زيادة او نقصان .

بلى ... انني أشفقت على بعض (المسيئين) فلم أذع اسماءهم ، ولم أتحدث صراحة عنهم ، وذلك صوناً لهم من شتائم الأحفاد والتاريخ . فاما الأحياء منهم ، فهم أعرف بأنفسهم من الناس ، ويكفيهم عذاب الفكر ، وتوبيخ الضمير . وأمّا الأموات منهم ، فقد أصبحوا في ذمة الله والذكريات . وصدق الله العظيم : من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

المؤلف

الشيخ صالح العلي

قائد الثورة العلوية

طلبنا الى السيد جميل مامبش — الضابط الوطني الذي انتدبه جلالة الملك فيصل للانخراط في « الفوج الملكي الذي نظمه المرحوم عزيز هارون — ان يكتب لنا وصفاً موجزاً عن حياة الشيخ وكيفية الثورة .

وبما ان السيد مامبش كان أحد أركان الشيخ صالح ، ورافقه في بعض العمليات الحربية فان باستطاعته ان يعطينا صورة صحيحة عن حياة مجاهدنا الكبير .

لقد تأكد لي بعد الاطلاع ، والتجربة ، والبرهان ، ان الشيخ صالح العلي ، قائد الثورة العلوية ، رجل عظيم ، وعظيم جداً . وان قيادته الحكيمة للثورة كانت مستوحاة من ايمانه ، ومن خبرته العسكرية التي كانت تدهشنا نحن الضباط النظاميين .

وقد اظهر في جميع المواقع تفهماً صحيحاً لوضعية المعارك الفنية ، وأستنتاجاتها ، وانه خبير بالوقت الذي يجب فيه الكر ، والفر ، والتقدم ، او التأخر ، والالتفاف ، او الهجوم .

وكان يرسم لنا الخطط الحربية ، ثم يدعونا للتناقش بها ، واقرارها

ويرسم لكل منا الخطة التي يجب عليه اتباعها وقت الهجوم ، وقبله ، وبعده . واذا صدف واختلفنا معه في تخطيط بعض المعارك فانه كان يصرُّ على رأيه ، ثم تأتي النتائج ، فتُثْبت انه كان على صواب ، وأننا كنا على خطأ .

وكان كثير الحذر ، فلا يطلعنا على خططه الحربية امام أحد ، حتى من الحرس الخاص ، وانما كان يتكتم بها ، ويتستر ، فلا يعرف احد من أمرها شيئاً ، حتى نبدأ بالتنفيذ .

وكان يحسن الرماية ، واصابة الأهداف ، واذا نصبت مباراة بين الجنود فانه يكون — دائماً — الأول ، ولم يتغلب مرة واحدة احدٌ عليه . وكان يصرح لنا قبيل المعركة مثلاً انه سيقتل مائتي جندي ، فنعرف بداهة انه يحمل مائتي طلقة .

رجل حديدي الارادة ، شديد المراس ، لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه ، وكان اجرأ الناس على اقتحام المصاعب ، وتحمُّل المشاق ، ولم يصدف مرة ان دارت معركة إلاّ وهو في طليعة المهاجمين او المدافعين .

ولم يكن ينفر من الخشونة ، ولا يهرب من الصعوبات ، وسيان عنده أبات ليلة على الأرض في ظل شجرة ، أو إلى جانب صخرة ، أو بات ليلة على فراش ، أو قضى ليلة يراقب ، ويفكر .

وإذا جاءت اخبار من خفراء الحدود فانه كان يستيقظ عند

اقتراب وقع الأقدام قبل أن ينتبه لذلك الحراس .

وصادف مرة ان بقينا في المعركة ثلاثة أيام بدون طعام ، فلم يَشْكُ من ذلك ولم يتألم ، وكان يؤثر الجنود على نصيبه من الطعام حتى لا يتسرب على نفوسهم الاعياء .

عظيم الثقة والايمان والاعتقاد بالله ، كنا نستيقظ مبكرين من كل يوم فنجده وقد استقبل الكعبة الشريفة وابتدأ بالصلاة .

وكان يُدخلُ في المعركة ما نحتاجه من الرجال ، ويبقى وراء الجبهة جنوداً كثيرة بمثابة احتياط ، وهي نفس الخطة العسكرية التي يتبعها القواد العظام من قديم الزمن الى الآن .

وكان يستعرض الجنود ، ويتفقد الضباط قبل الهجوم ـ كما يفعل القادة الماهرون المحنكون . وكثيراً ما كان يغيب عنا فننتظر مجيئه من جهة ، فاذا به وقد جاء من جهة أخرى .

وكثيراً ما كان يفارقنا حين احتدام المعركة ثم يقول لنا سنلتقي هنك ، وفعلاً كنا نلتقي في المكان الخطير الذي اشار اليه .

وكان في بعض المعارك التي يزداد علينا الضغط بها ، ينهرنا بشدة ، ويأمرنا بالثبات ، ويظل يحارب حتى آخر لحظة . فقد كان في كل المعارك أول من يهجم ، وآخر من يتراجع ، وانني اشهد اننا كنا نقتدي به . وان المجاهدين كانوا يخجلون في المواقع العسيرة ان يتراجعوا وقائدهم لا يزال في الميدان ، وكثيراً ما كان الفضل في ربحنا .

المعارك الى ثباته ونضاله العجيبين .

وكان متسلطاً على عموم مرافق الثورة حتى أنه كان يعزل الضباط ويعين آخرين ممن يراهم موافقين . وينقلهم من هنا الى هناك . فلا يستمع الى نصيحة احد ، ولا يصغي الى ملاحظة انسان . فقد كان يحتفظ لنفسه بجميع الصلاحيات والسلطات ، فلا سلطة إلا سلطته ، ولا إرادة إلا إرادته ؛ ولم نكن نتبرم من ذلك نحن الضباط النظاميين . اذ كنا واثقين انه لا يقصد إلا حفظ الثورة من الفوضى والتبلبل . ولولا صرامته ، وقساوته ، واحتفاظه لنفسه بجميع الصلاحيات ، لما بقيت الثورة كل ذلك الوقت الطويل .

واما عدد المجاهدين فاننا لانستطيع الجزم به ، إذ أنهم كانوا يتزايدون ويتناقصون حسب الحاجة ، وحسب الطلب ، وقد صادف مرة ان قدرنا عدد المجاهدين بعشرة آلاف في جميع الجهات، من الشمال إلى الجنوب .

وكنا حينما نحتاج الى الذخائر نستوردها من تجار حماه ، وندفع لهم أثمانها عند انتهاء كل معركة إذ أن موعد الدفع بيننا وبينهم كان هجومنا على الحملة أو هجوم الحملة علينا .

والأغرب من ذلك كله أن الأهلين أنفسهم كانوا يستدينون حوائجهم حتى تطلع الحملة فيدفعونها منها .

وأما عدد الجيش الفرنسي المحارب والاحتياطي فانه كان يزيد في بعض الأوقات من الخمسين ألفاً مجهزة باحدث أنواع السلاح .

وقد لعبت النساء العلويات دوراً هاماً في الثورة ، اذ كنّ يحمّسن الجنود ويحملن الطعام إلى الجبهة ، وكثيراً ما كانت تجلس المرأة وراء زوجها تجهز له البندقية بالطلقات .

وكانت الثورة العلوية أشبه بحرب نظامية منها بثورة عادية . ولولا الظروف السياسية التي رافقتها • والخيانة من بعض المارقين الذين كانوا يشكلون طابوراً خامساً داخل الثورة وخارجها ، لكنا نأمل ان تكون الأداة الوحيدة لتخليص هذه البلاد من ربقة الانتداب .

وسوف يتحدث التاريخ المنصف عن هذه الثورة بكثير من الفخر ، وعن قائدها البطل الشيخ صالح العلي في كثير من الاعتزاز والشكر . ويتحدث عنها وعنه في صحائفه الذهبية باحرف من نور .

ولو ألّفتُ بالشيخ صالح عدة كتب كبيرة ، لما وفيته حقه من الاطراء والاطناب .

الرئيس

جميل ماميش

لمحة من تاريخ العلويين

قبل أن نلج غمار موضوع هذا التاريخ ، لابدّ من أن نلمّ إلمامة سريعة خاطفة بتاريخ العلويين ، معتذرين لأن قصر الوقت، وضيق المجال لايسمحان لنا بالتبسط والاسهاب .

العلويون : طائفة مسلمة وشيعية ، امامية — اثنا عشرية . نبيها محمد صلىّ الله عليه وآله وسلم . وهم متحدِّرون من قبائل عربية صافية لا تزال العشائر العلوية تنتسب إليها ، وتفخر بذلك الانتساب ولا يزال النظام « العشائري » المتوارث عند العرب أباً عن جَد يسري مفعوله بين العلويين إلى اليوم . ولجميع العشائر العلوية أنساب تثبت تحدّرها من العشائر العربية الساكنة في الجزيرة العربية . ولها تواريخ مثبتة تؤكد هجرة أجدادهم من الجزيرة الى هذه الجبال .

والعشائر العلوية الرئيسية اربع : الحداديون ، والنميلاتيون ، والرشاونة ، والخياطيون . وتقسم كل واحدة من هذه العشائر الأربع الى أفخاذ وبطون ، ولها تقاليد وعادات وأنظمة محلية متوارثة أبا عن جد وترجع الثلاث الأُوَلُ منها إلى عشيرة المحارزة — البشارغة — التي هي

أقدم العشائر جميعاً .

ومعظم العلويين يحتشدون في سلسلة الجبال الممتدة من عكار جنوباً ، إلى طوروس شمالاً . ويتوزع بعضهم في محافظات : حمص ، وحماة ، ودمشق ، وحلب ، وحوران ، و كيليكيا، ولواء الاسكندرون ويوجد في المهاجر الأمريكية أكثر من ربع مليون علوي . فضلاً عن الموجود منهم في لبنان ، والعراق ، وفلسطين . ويبلغ عدد العلويين نحو مليون وا كثر من — بين مقيم ، ومغترب ، وموزع هنا وهناك .

وقد ظهرت الفكرة العلوية إلى الوجود = كفكرة سياسية بحتة = أبَّانَ الخلاف والنزاع على الخلافة بين « علي » و « معاوية » ، ذلك النزاع الذي انتهى أمره — كما يعرف القارىء — باستشهاد (الامام) ، وانتصار معاوية بن ابي سفيان .

وكانت بيعة « النبي » لـ « علي بن أبي طالب » في « غدير خم » مدعاة إلى تكتّل الذين شهدوا البيعة من الصحابة والأنصار . وعاهدوا الله ورسوله وقتئذ ان يكونوا لعلي ، ومعه ، حتى الموت . وقد أجمع أكثر المؤرخين على القول بأن الفكرة العلوية قد ظهرت الى الوجود في ذلك اليوم [1] ولكنها لم تتخذ شكلها الظاهر العنيف أيام

(١) والعلويون قسمان : قسم يمت « علي » بالقرابة والنسب ، وقسم يمت بالحب والولاء . وكان القسمان يدعيان في عهد الامويين معاً بالهاشميين . وظلا متحدين حتى العهد العباسي ؛ فافترقا حينئذ الى عباسيين وعلويين .

خلافة (أبي بكر) و (عمر) و (عثمان)، رضي الله عنهم جميعاً؛ وإنما اقتصرت في أيام الخلفاء الراشدين الأول على الجهر بأفضلية «علي» عليه السلام، وأحقيته بالخلافة، بعد رسول الله.

ولكن استشهاد «علي» و «الحسين» قد زاد في تكتل العلويين إلى حدٍّ بعيد. فجمع كلماتهم، ووحّد صفوفهم، وصهرهم في بوتقة «انكار الذات»، والتفاني في سبيل [آل البيت] والآلام توحد النفوس اكثر من الآمال. وان للدموع صلاتٍ أقوى وأمتن من صلات الابتسام.

واشتدت نقمة (الأموي الأول) وبعض خلفائه العلويين؛ فكانوا يطاردونهم من مكان إلى مكان. ويشكلون بهم أفظع تنكيل. حتى أن ولاتهم في العراق، وأهمهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد ابن أبيه، والمغيرة بن شعبة؛ كانوا لا يتورعون عن الايقاع بهم لأتفه الأسباب. وتلك حال مؤسفة لم يكن الدين سبباً رئيسياً لها، وإنما كانت السياسة ذلك السبب الرئيسي ولولا السياسة لما كانت ثمّ فوارق بين المسلمين لا في الزمن القديم، ولا في الزمن الحديث.

واحتمى العلويون في الكوفة والبصرة، ثم التجأ بعضهم أخيراً إلى مكة، والمدينة، وبلاد فارس؛ يتخذون من المعارضين في هذه البلدان درعاً يتقون به غضب الخليفة الناقم، وبطش ولاته القساة.

وجهت المعارضة فلولها ثم اشتركت في حرب طاحنة مع الحكومة انتهت بانهيار دولة الأمويين والاستيلاء العباسيين على الحكم، وانتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد. وكان العلويون أقوى دعائم العهد الجديد وأشدها متانة وقوة، فكان بديهياً أن يأملوا من ورائه الخير، وقام على عواتقهم، وتوطد بسيوفهم، ولكن شهوة الاستئثار بالحكم دفعت العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الأمة للتنكر لحلفائهم وأصحاب الفضل الأول عليهم! وهكذا وجد العلويون أنفسهم هدفاً لنقمة الحاكمين من جديد، فنالهم من الأذى مالم يتوقعوه، أو يتصوروه. بل مالم يتصوره او يتوقعه إنسان. بل ان العباسيين قد اشتطوا في عدائهم للعلويين حتى وصلوا إلى درجة لم يبلغها الأمويون، وبذلك يقول شاعر علوي:

فبنو أمية مع قساوة حكمهم ... خير لشيعتك من بني العباس

ويقول أبو فراس في خطابه للعباسيين:

ما نال منهم بنو حرب وان عظمت ... تلك الفظائع الا دون نيلكم

ويقول دعبل الخزاعي في وصف حالة العباسيين:

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل، وأسر وتحريق، ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

أرى أمية معـــذورين ان قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

ذلك لأن الأمويين قد استلموا الحكم عن طريق القوة والبطش فكان بديهياً ان تنطوي لهم النفوس على بغض وحقد عظيمين . بينما العباسيون قد استولوا على الملك وارتفعوا إلى سدة الحكم بسيوف العلويين ، وجهاد العلويين ، ومع ذلك فانهم لم يتورعوا عن الغدر بأحلافهم ، عندما صفا لهم الجو ، وصلحت الحال !

لقد كان الامويون يتوددون للعلويين ، ويسعون لشراء سكوتهم بالمال وكان العباسيون يتوددون للعلوي — المهيب الجانب ، الرفيع المقام ، حتى اذا وثق بهم ، واطمأن لهم ، دسوا له السم فمات ! ولم يذكر التاريخ أمة كانت أشد بطشاً وسفكاً للدماء من العباسيين مع العلويين فقد كان مجرد ذكر الحسن والحسين ، والثناء عليهما ، يكفي لانزال العقاب بالذاكر أياً كان . ولذلك هاجر العلويون فراراً من الظلم الى أماكن نائية .

ولكن هذه الهجرة أفادتهم بادىء الأمر إذ أنها حالت بينهم وبين نقمة الحاكمين الظالمين ، ثم أفادتهم آخر الأمر حينما بدأ التفكك والانحلال في جسم الدولة العباسية التي استسلمت للترف ، وأغفلت ماعداه — بأن مهدت لهم السبيل لاقامة الحكومة « الفاطمية » في مصر و « الحمدانية » في حلب ، و « التنوخية » في اللاذقية ، وعلى ذكر الحكومات

العلوية نذكر ايضاً أن بغداد نفسها خضعت في وقت ما الى « الامراء البويهيين » العلويين. فكان للخليفة الاسم ، ولهؤلاء العمل الصحيح .

ولكن هجرة العلويين إلى هذه المناطق ، وان كانت كفلت لهم الأمن والحياة أولاً ، والسيادة والرخاء ثانياً ، فقد اضرت بهم بعد ذلك ضرراً كبيراً ، اذ جعلتهم عرضة لهجمات الروم المتكررة ، ولحرب طاحنة عنيفة لا تعرف الهوادة ولا اللين .

ولم يقتصر عداء الخلفاء العباسيين لشيعة علي بن أبي طالب على قتل أئمتهم بالسم ، والتنكيل باحرارهم ، واضطهاد عامتهم ، وتقتيل زعمائهم بالألوف - كما فعل بالبرامكة هارون الرشيد - وانما تعداه الى ايقاع الفتنة والشقاق بين طائفتي السنيين والعلويين ، مما عاد على العرب بأوخم عاقبة ، وأسوأ مصير .

وليس ذلك بمستغرب من العباسيين ، فان القومية العربية التي ارتفعت في عهد الخلفاء الراشدين ، والأمويين الى أسمى حدود الارتفاع عادت فانحطت في زمن العباسيين الذين استعانوا بالعناصر الأجنبية لحكم البلاد ! والذين وصلت بهم الحال إلى حد كانت فيه الخلافة أُلعوبة بأيدي الفرس والأتراك ، وأرجوحة بين هذين العنصرين المتنافسين والحزبين المتناحرين ! وكثيراً ما كان هؤلاء يخلفون « خليفة » وينصبون آخر بدلاً منه لأتفه الاسباب ! وكان العرب لاهين عن تلك العناصر

الأجنبية الهدّامة تتحكم في مصيرهم، ومصير خلفائهم، باستسلامهم الى الترف والنعيم! وما وراءهما من لذة، وكسل، وجمود.

ان العهد العباسي — الذي ازدهرت فيه الصناعة والآداب والفنون ازدهاراً كبيراً لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب — كان ضربة لازبة على العرب الذين حكمهم العباسيون وهم موحدون أقوياء، ثم خلفوهم وهم مقسّمون ضعفاء! ولولا الضعف والتعصب اللذان ظهرا من الخلفاء العباسيين لما وصل العرب الى مثل هذه الحال السيئة من التفسخ والانقسام، يتحكم في مصيرهم غرباء مستعمرون.

...

لما قويت شوكة العرب والمسلمين بظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيهم، وذابت «القبلية» في كيان الدين الجديد، وانتهت الاحقاد والضغائن التي كانت تبذر بينهم بذور الفتنة والشقاق. وسموا فوق الحزازات، والانانيات، والحزبيات، واستولى على حواسهم ومشاعرهم شيء يسمونه «انكار الذات» في سبيل «المثل الاعلى»، حينذاك وقف العرب أمة متراصة يغمرها شعور من الايمان عميق. ومشت جحافلها المظفرة تثل العروش، وتدوس التيجان. وتحطم بأقدامها العارية عظمة الفرس والرومان. ولم يرجع العرب الى جزيرتهم المقفرة الا بعد أن نشروا مدنيتهم في أقاصي المعمور. ورفعوا أعلامهم على جبال «هملايا»

في الهند، وجبال (الألب) في فرنسا .

وثمل العرب بانتصاراتهم الزاهية، واستسلموا للترف والنعيم، وغفلوا عن أعدائهم الموتورين ، الذين يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون لهم الفرص ، ولما تأكد الاعداء من تمزيق شمل العرب ، وتفكك وحدتهم، وتقطع أوصالهم، وتنازع أمرائهم السيادة والنفوذ، واحتفاظ كل اقليم باستقلاله الذاتي ، وانشغالهم بأنفسهم ولذائذهم ومؤامراتهم الداخلية عن كل ما هو خارج الحدود .

أجل : لما تأكد الاعداء من ذلك كله حدث ما يمكن حدوثه في مثل هذه الاحوال والظروف فاذا الاقاليم العربية المتنافرة المتباعدة هدف لهجمات الروم في حرب عنيفة دامية لا هوادة فيها ولا لين .

وكان العلويون بحكم موقعهم الجغرافي المتاخم لبلاد الروم . وبحكم نزعتهم العربية الصافية ، أول من يهاجمهم الروم ، وأول من يتصدى لهم ، ويعترض طريق المهاجمين . ودام الحال كذلك قرناً او اكثر ، والعلويون يتقون بصدورهم هجمات الروم ، ويذودون بأنفسهم وأموالهم عن حياض العرب المقدسة . وأخيراً تغلبت القوة الطاغية حيناً من الدهر ، فرفرفت في سماء العرب أعلام أجنبية حملت اليهم الذل والعار، وألواناً من الاضطهاد والاستبداد لاعهد للبشرية بمثلها من قبل.

ولو اتسع المجال لأسهبنا في ذكر تلك الوقائع العنيفة ، والمضار

الكثيرة ، التي أُلحقتها حروب الصليبيين بالعرب والمسلمين – سنيين وعلويين ، والتي تفوق حدّ الوصف ، ويقصر عن شرحها البيان. ولكن المجال أضيق من أن يستوعب مثل هذا الحديث ، غير أنه لابد من إطلاع القارئ على النكبات التي ألمّت بالعلويين في ذلك التاريخ، محاولين ما أمكن الاختصار ، حتى لا نغرق في مثل هذا البحث الواسع فننشط بذلك عن الغاية المقصودة من تأليف هذا الكتاب .

إن في تاريخ العلويين نكبتين عظيمتين : الأولى حروب الروم مع الحمدانيين خاصة ، والصليبيين مع العرب عامة . والثانية قتال السلطان سليم العثماني.

ولم يكن الصليبيون قوة حربية مخيفة بتنظيمها ، وتدريبها على فنون القتال ، وإنما كانوا كالسيل الجارف يقضي على كل ما يعترض طريقه دون استثناء . وقد مرّ هذا السيل على بلاد (كيليكيا) التي كان يسكنها قسم كبير من العلويين فتركها قاعاً صفصفاً ، والذي استطاع أن ينجو من حرب الصليبيين كان يلتجئ الى مصر ، او الى هذه الجبال – التي كانت يومئذ غنية بالأحراج والغابات .

ولو لم يكن للمسلمين العلويين ما يدلون به على اخوانهم، ويفخرون فيه ، إلا مقاومتهم للروم عدة أجيال ، والخسائر الفادحة التي لحقتهم

من جرّاء ذلك، والتي لم يسبق أن تعرض لمثلها شعب من الشعوب — لكفى .

ومن أبرز الشخصيات العلوية في هذه الغمرة المؤلمة من تاريخ العلويين، والذين كان لهم مواقف مشهودة في حروب الصليبيين هم: الشيخ بدر الغفير، وسعد بن دبل، ومنصور العقابي — حاكم قلعتي القدموس والخوابي، ومعروف بن جمر — حاكم قلعة صهيون واللاذقية. والشيخ أحمد الشهيد، والشيخ راشد وغيرهم كثيرون .

وأما النكبة الثانية التي حلت بالعلويين فقد كانت على يد (السلطان سليم العثماني) — ذلك السفّاح الذي أرغم بعض صنائعه من العلماء على إصدار (فتيا) بهدر دماء العلويين! فكان من جرائها تلك الفظائع التي يندى لها جبين الانسانية خجلاً وحياء . وتعد نقطة سوداء — لا في تاريخ الترك فحسب ، بل في تاريخ المدنية القديم .

وأشد ما يؤلم المسلمين العلويين، ويجرح كبرياءهم العربي، اجراء تلك الفظائع باسم الدين ! واقامة تلك الأعمال باسم الاسلام ! والله يعلم، والمنصفون يعلمون ، ان الاسلام براء من ذلك العمل الفظيع ، ولكنه التعصب (العنصري) الدنيء . ولكنه الجهل الذي يرجع بالانسان إلى حيوانيته الأولى ، والذي يضعه في الدرك الأسفل بين الهمج والمتوحشين .

ولم يقتصر السلطان سليم على تلك المجازر الرهيبة، والفظائع المنكرة، التي مثّل بها في العلويين، بل استجلب العشائر التركية من الأناضول، وكان يقدر عدد أفرادها بمليون، وأسكنهم في السهول المحيطة بمعاقل العلويين — من جبال طوروس، إلى جبال عكار. وسلطتهم على العلويين المحاصرين بجبالهم بغية افناء هذا الشعب عن بكرة أبيه! وهي فكرة خبيثة كانت ترمي الى غرضين في وقت واحد: تتريك هذه البلاد أولاً، والقضاء على العلويين ثانياً، وقد فشل الغرضان في هذه البلاد، ولكنهما نجحا في الاناضول حيث احتشد فيها بعدئذ ملايين من الترك، والأرمن، والأكراد.

ومما يدلك على أن فكرة السلطان سليم كانت «شعوبية» استغلت الدين لمقاصدها وأغراضها، هدمه تربة يزيد بن معاوية في الشام، وأخذه الشبكة الذهبية التي كانت موضوعة حول قبر (يزيد) الى تربة (محي الدين العربي)، بعد أن حسّن تلك التربة، وجعلها لائقة بالصوفي العظيم فدل بهذا العمل على أنه لم يقم بما قام به ضد العلويين عن اعتقاده بكفر هؤلاء، وإنما استغل تكفيرهم لأغراضه السيئة، ومقاصده التوسيعية الكبيرة، بعد أن لاقى من عنف مقاومتهم ما لاقي، ورأى من شدة بأسهم واتحادهم، واستماتتهم في سبيل عروبتهم ما رأى. وهذا وحده دليل كاف على أن تلك المجازر التي حصلت في العلويين لم تكن سنية —

علوية، وانما كانت عربية — تركية. لأن السنيين العرب قد ناصروا اخوانهم العلويين العرب كما ألمعنا إليه.

وقد استطاع السلطان سليم ان يحشر العلويين — السالمين من أذاه — في هذه الجبال الوعرة الضيقة، لا يستطيع أحد الخروج من بينها إلاّ إذا كان يفضل الموت على الحياة. فالترك محيطون بجبالهم إحاطة السوار بالمعصم، وقد عمروا المدن، واستوطنوا السواحل؛ وبثوا على منافذ الجبل العيون والأرصاد. وكثيراً ما كانوا يهاجمون العلويين في عقردورهم، فيقتلون، ويدمرون، وينهبون. حتى اضطر أكثر العلويين الى سكنى المغاور والأنفاق.

واستغربت بعض القبائل التركية، وهاجر بعضها الآخر، وفك الحصار المادي عن الجبل العلوي، ولكن الخوف الذي أنتجه ذلك الحصار الطويل جعل العلويين في حصار دائم من مخاوفهم، وأفكارهم وذكرياتهم،

وانكمش العلويون على انفسهم في هذا الجبل الشاكل المدمى؛ لا يخرجون منه، ولا يسمحون لأحد بالدخول إليه. واستقرّ في نفوسهم عداءٌ رهيب لأنصار الحكومة التركية، عداء كانت تغذيه الذكريات وما فيها من ألمٍ ورعب وهول. ويستمدقونه من الأحداث التي لا تزال آثارها الدامية تشهد بقسوة الانسان، وفظاعة الانسان.

واتسعت دائرة الحضارة والمدنية حتى غمرت أنحاء العالم، ولكنها توقفت عند أبواب هذا الجبل لا تجرؤ على الدخول إليه، وتكسرت أمواجها الجبارة الصاخبة على أقدامه الثابتة على شاطئ البحر، وهو في نفوره وشموخه لا يريد أن تصله بالعالم الناقم عليه أوهى الصلات. فكان اشبه بالجزيرة العائمة وسط هذا الخضم المتلاطم الأمواج.

وتغيرت حدود. وتمزقت خرائط. ودخل على هندسة الكون نظام جديد والعلويون في انكماشهم، وقعودهم بين هذه القنن الجرداء، لا يتركونها في صباح او مساء!

وتبدلت الأزياء، وتطورت ألوان المعيشة، واختلفت مناهج التعليم والتدريس، وانتقلت الحياة من طور الى طور، ودخلت في قالب جديد لا عهد للناس به من قبل، والعلويون لا يزالون في انكماشهم على أنفسهم، ونفورهم من كل ماهو خارج حدود جبلهم الأشم! وهكذا فقد كان العالم يتقدم، والعلويون في محافظة وجمود يغذيهما الحذر الشديد.

ولم تخل هذه الغمرة المؤلمة من مخلصين عمدوا الاصلاح ما أفسده سواهم، ولكن الجرح كان أعمق من ان تشفيه المراهم الخارجية، ولم تتوفر الأدوية التي باستطاعتها التغلب على كل مرض ضمن دائرة الامكان.

وبقيت الحال في العلويين — كما بينا — الى نهاية الحرب الكبرى واقدام الفرنسيين على احتلال هذه البلاد. فوقف العلويون من الأجنبي

ذلك الموقف المعروف الذي نقف له هذه الصفحات . و في قائد ثورتهم الجبارة ، الشيخ صالح العلي ، ثلاث سنوات ونصف ، وهو في صياله ونضاله المشهورين . فكانت ثورته تلك أطول وأعنف ثورة عرفتها البلاد العربية في تاريخها الحديث . ومع ذلك فلم ينبر مؤرخ واحد للتحدث عن تلكم الثورة بما تستحقه من العناية والاهتمام! بل انه لم يشر اليها الا القلائل من المؤرخين ، وفي لمحات وجيزة خاطفة ! وفي ذلك طيّ صفحة مجيدة من تاريخ الجهاد المقدس ، لا غنىً لشعب عنها ، وهو يستمد غذاء حاضره من ماضيه .

ولما تغلب الحديد والنار على البطولة والحق ، حكم الفرنسيون هذا الجبل حكماً مباشراً ، وأنشأوا له كياناً خاصاً ، وأقاموا بينه وبين الوطنيين في الداخل والساحل سياجاً من الحديد والنار وحاولوا ـ حتى ـ الاساءة الى عقائده ، ومبادئه ، وتشويه تاريخه القومي الصريح! متحدين في ذلك تاريخ طائفة عمرها ثلاثة عشر قرناً ، محاولين أن يبتلعوا هذه المئات الطويلة من السنين ، كما يبتلع الجائع لقمة من الخبز ! على ان ادعاءاتهم وأراجيفهم لأوهى وأوهن ، من أن تثبت امام مجهر الحقيقة وأحط من ان نوليها شيئاً من الاهتمام والتفكير .

* * *

هذه لمحات عن تاريخ العلويين في جميع الأدوار السياسية التي

مرت عليهم ، وهي لمحات سريعة خاطفة ، يشفع بسرعتها قصر الوقت وضيق المجال. وشيء ثان: هو اعتقادي أن القارئ لابد أن ذاكرته تستوعب تفصيلاً مجملاً لحياة هذه الطائفة التي كانت مضطهدة في الماضي والتي حررها العهد الوطني الجديد من اضطهاد الفكر ، والاقطاع والسياسات .

ثم : انني تحدثت عن تاريخ العلويين السياسي ، وأغفلت ماعداه ذلك لأنني لم أقف هذه الصفحات لدراسة تاريخ العلويين دراسة مسهبة وهو ما ارجو ان أوفق له في كتاب مستقل .

نبذة من تاريخ الشيخ صالح العلي

ولد الشيخ صالح العلي حوالي سنة ١٣٠٠ هجرية في قريته «المريقب» التابعة قضاء طرطوس، والكائنة في ناحية الشيخ بدر، من ابوين طاهرين كريمين. ومن اسرة عريقة لها مكانتها المرموقة ومركزها المعروف.

ووالده الشيخ علي سلمان من الشيوخ الذين نذروا انفسهم لله، ولمكارم الاخلاق. وقد بنى مسجداً عمره بالصلاة واعتكف فيه طيلة ايام حياته. وكان مرجعاً كبيراً لطلاب العلم والحاجات، يؤمون مسجده من سائر الأنحاء والجهات. ويحتكمون اليه في صغائر الامور وجلائلها.

مبايعة الشيخ صالح بالزعامة

وقد توفي الشيخ علي سلمان وله من الأولاد اربعة: الشيخ محمد كامل، والشيخ صالح، والشيخ عباس، والشيخ محمود. ولم يكن الشيخ صالح يبلغ من العمر حين وفاة والده الا عشرين سنة او تنقص قليلا. ولكنه بالرغم من صغر سنه وحداثة عهده بالحياة، وواجباتها، ومتطلباتها

فقد اجمعت الكلمة على انه خير من يحمل رسالة أبيه ، ويؤديها اصلح الأداء . ولذلك فقد اجتمع الآل والاصدقاء والأتباع ، وبايعوه بالزعامة واشترطوا على انفسهم شرائط الخضوع المطلق ، لمشيئته ، وارادته .

وقد برهن بعد هذه المبايعة عن حصافة بالغة ، وذكاء وقاد ، وحيوية رصينة ، قلّ ان تمتع بها سواه — مما اجمع الكلمة على حبه والثقة به ، والالتفاف حوله ، وتأييده تأييداً صارماً مطلقاً ، فقد لمع نجمه ، وتألق اسمه ، حتى أصبح ملء الاسماع والأفواه .

مقاومة الشيخ للأتراك

وقد نجم عن قوة شكيمته ومتانة عقيدته ، ان اصطدم مع الاتراك في عدة مواقع - كانت تتفاوت شدتها بين الحين والحين ، وتتراوح خسائرها بين العشرات والمئات .

وقد انسحب الأتراك في نهاية الحرب الكبرى ، ونفوسهم تغلي بالحقد ، وتنزى بالألم على هذا الفتى الذي اعجزهم ، واستنفد حيلهم ووقف حائلا بينهم وبين الانتقام من تلك الجهات ، التي شمست على ارادتهم طيلة اربع سنوات .

ولو قيض لنا ان نتفرغ للبحث عن حربه مع الاتراك ، وان نقف لها هذه الصفحات ، لرأي الناس عجباً من أمر هذا البطل - الذي تعتبر

حياته بحق - سفراً نفيساً من أسفار الجهاد المقدس، ومفخرة من مفاخر الوطنية، والتضحية والنضال.

ولكن هذه الصفحات موقوفة للتحدث عن جهاد آخر هو جهاد الشيخ ضد الفرنسيين، ومقتصرة على هذا الحديث وحده - وضمن نطاق الايجاز والاختصار.

اخلاق الشيخ

ماعرف الناس شعوراً نبيلاً مُترَفاً ، واحساساً رقيقاً مرهفاً ، وخلقاً رضياً رصيناً ، وعقلاً كبيراً رزيناً . وقلباً ينبض بالعاطفة والحب ، ولساناً ينطق بالصراحة والصدق ، كما عرفوا الشيخ صالح العلي .

والناس جميعاً — بما فيهم الصديق والعدو — يقرون ويشهدون ان حياة الشيخ نموذج صالح للأخلاق والفضيلة ؛ وانها اصلح ماتكون لان تؤخذ قدوة للمقتدين ، وسبيلاً للمهتدين . وانه فيما يتحلى به من نبل السجايا ، وكريم الصفات ، وحميد المزايا ، قدوفر على ثورته الرهيبة كثيراً من الضحايا ، وحفظها من التفكك تلك السنوات الطويلة ، رغم امكانياتها المحدودة ، ووسائلها القليله . وانه قد أوحى بالبطولة والشجاعة الى جنوده ، بعد ما رأوه من صدق عزيمته ، وقوة شكيمته ، ومتانة اخلاقه الفاضلة ، ونبل صفاته الكاملة — حتى انه كثيراً ، ماعفا عن المتآمرين عليه ، وصفح عن المسيئين اليه .

ومما يروى بهذا الصدد انَّ دعوى عقارية كانت بينه وبين الشيخ محمود العلي من وجهاء القدموس ، وانه التقى به قبيل الموعد المحدَّد

لجلستها بيوم واحد ، فسأله عمّا أخّره عن السفر وحضور المحاكمة ، ولما علم انه لايوجد لديه مصروف الطريق ، اعطاه الشيخ (ثلاثين ريالا) ليتمكن من السفر ومتابعة دعواه .

وهو عمل قلّ ان يوجد له مثيل حتى في ارقى العواصم ، وعند أفضل الناس .

وما احسب أن انسانا تحت هذه السماء يعطي خصمه المال لكي يمعن في محاربته ، ويستمر في مقاومته .

وقد وقف الشيخ مثل هذا الموقف — اخيراً فقط — مع المعترضين عليه في قرية « كاف الجاع » . فقد مسح القرية كلها دون ان يهضم لانسان حقا ، ودون ان يحضر عملية التحديد والتحجير . وانما ترك الاهلين انفسهم مع المهندسين يصفون بالحدود التي بينه وبينهم كما يشاؤون ويختارون .

ولكنهم - رغم ذلك كله - اصغوا الى كلام المفسدين ، وغرّهم التساهل فاندفعوا لخدمة غايات المريدين والمغرضين ، فسجلوا اعتراضهم على الشيخ الذي لم يعترضهم في كل ماعملوه واجروه !

ولكنه - رغم ذلك كله ايضاً - كان يزودهم قبيل كل جلسة بالمال اللازم لمصروفهم ، واجرة المحامين عنهم ، ويسألهم بعد العودة عما جرى ، متبسطاً معهم في الحديث ، كأن اعتراضاً عليه لم يحدث ، وكأن

خلافاً بينه وبينهم لم يحصل .

وتلك لعمري اخلاق رضية قلّ أن تحلّى بها انسان .

ثم : ان معاملته للاسرى الفرنسيين ، وأكثرهم كانوا من المغاربة أول الأمر ، تفوق أية معاملة في اية دولة راقية . و كثيرون منهم كانوا ينضوون في صفوف المجاهدين محاربين مقاتلـــين . واذا أطلق سراح أحدهم ـ بعد أخذ العهد عليه ألا يعود إلى ساح القتال مرة أخرى ـ كان يرفضُ العودة إلى ميدان القتال ضد الشيخ ، ولو تعرّض في سبيل هذا التمنع إلى مايتعرض له الجنود الثائرون عادة ، من معاملة حازمة ، وعقوبة صارمة .

وان موقفه في القدموس بعد جلاء أهلها ، وأسر أكثرهم ، لمماّ يشرف سمعته العسكرية إلى الأبد . فانه كان يعطي الرجال الجالين وسائل السفر ، وما يلزمهم من زاد ، ومتاع ، ومصروف .

كما أن موقفه النبيل من قرية « الصقيلبية » التابعة قضاء « حماة » وتركه الجبهة الحامية الوطيس في جهات الشيخ بدر ، وذهابه على رأس قوة كبيرة إلى تلك القرية ، وإرجاعه ـ بالقوة جميع المنهوبات إلى أصحابها ـ حتى لا تتشوه سمعة الثورة ، وتتعرض للسوء كرامة الثائرين ، لأكبر دليل على مايحتشد في نفسه الكبيرة من شرف النفس ونبل السريرة ، وطهارة الوجدان .

وان التحدث عن أخلاق الشيخ موضوع رحب لاتتسع له هذه الصفحات .

على أن الذي لابدّ من قوله الآن ونحن في معرض التحدث عن ثورته الكبرى هو ان الفضل الأول لانجاح فكرة الثورة وغايتها ، يعود إلى ما يتحلى به الشيخ من خلق نبيل ، واخلاص ليس له مثيل .



ايمانه

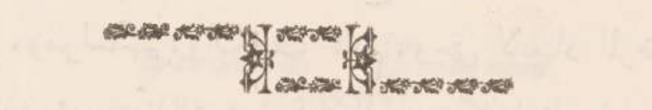
يحدّث مرافقو الشيخ أنه في أعنف المعارك، وفي ساعاتها الحرجة الحاسمة، كان يتيمم ويتجه للصلاة، متى حان وقتها، وأوفت ساعتها، وانه كان يقضي الكثير من اوقات الراحة بتلاوة القرآن الكريم، وباستنساخه تيمناً به، وتبركاً منه، وانه كان يوحي مثل هذا الايمان إلى المجاهدين كافة، فجعلهم يعتقدون ان جراح الجهاد لاتميت، وأنها لا تلبث أن تندمل من تلقاء نفسها، بعد دهنها بالزيت المتلو عليه بعض سُوَرِ القرآن.

والغريب في ذلك أن هذا الاقتناع كان وحده كافياً لمداواة الجرحى، ومواساتهم، والتخفيف عنهم، وحتى لابعاد المرض عن المجاهدين، وقد حدثنا الشيخ نفسه ان المجاهدين كانوا ينامون في العراء أيام الشتاء، وليس لهم ما يقيهم من المطر الا بعض قضبان مورقة من الريحان، كأنها الاكفان، وليس عندهم ما يتوسدونه إلا بعض الحجارة المغطاة بالريحان، وقد وضعت لترفعهم عن الأرض، ومسيل الماء.

ويقول الشيخ: انه رغم ذلك كله، ورغم العواصف والثلوج،

لم يصب أحد من المجاهدين بنزلة صدرية ، ولا بأى مرض آخر ، ويضيف الشيخ ، ومرافقوه ، ان الجراحات لم تكن تداوى — كما ذكرنا آنفا — الا بدهنها بالزيت الحلو . وذلك وحده كان الدواء الناجع المفيد .

ولا شكّ في أن ايمان الشيخ بالله ، وبعقيدته ، وبمبدأ الجهاد ، قد كان له أكبر الأثر بالاستمرار في المقاومة ، وبتفادي الخسائر ، وتقليل النكبات ، والعلم الحديث يبرهن لنا ان للايحاء قوة غلابة ، لا تعدلها قوة مادية أخرى .



شجاعته

لم تحتدم يوماً معركة الا وهو في طليعة الثائرين والمجاهدين، يستوحون من بطولته الخارقة، وشجاعته الفائقة، ضروب البطولة؛ والرجولة، والاقدام، ويتخذون منها مثالاً قويا يهتدون بهديه، ويسترشدون بخطاه.

وكم أحرقت بيوته، واستبيحت معاقله، وتفرق الناس من حوله وكثر المتألبون عليه، ولكن ثباته ورباطة جأشه، كانت تعيد الثقة الى جنوده الفارين، وتعيدهم الى ميادين النضال، وهم أكثر شجاعة واعظم إقداماً.

وكم ضاقت أمامه سبل الحياة، فالفى نفسه في حصار شديد الوطأة، محكم الرباط، ثم استطاع بايمانه الذي لم يتزعزع، وعزمه الذي لم يتضعضع، أن يفك ذلك الحصار، فيحصر المحاصرين، ويهجم على المهاجمين. كما حدث في قرية « برمانة الاسماعيلية » إبّان ذلك الحصار الشديد.

شجاعة الشيخ: انها مضرب الأمثال، وحديث الرجال، وهي

عقيـدة قوية مؤمنة تُستوحى منها، ويُصْدَرُ عنها، ولولا تلك الشجاعة الخارقة لتبدّل تاريخ الثورة؛ واسودّت صفحاته البيض؛ وكان على غير ما هو عليه الآن.

هيبتـه

طويل القامة ، عريض المنكبين، يحدثك ووجهه طافح بالبشر، وملامحه الرضية ، وعيناه السوداوان القاهرتان،وحديثه الجرىء الصريح والمعجب ، المتواضع ، الأخاذ — يحدثك هذا كله ، عن وقار لاتشهد له مثيلاً ، ولا تعرف له نظيراً . وعن كبرياء يرفع التواضع منها ، وتحدثك الأخلاق الرضية عنها .

يُقبِل عليك ، فتنجذب نحوه ، وانت لاتعرف السبب،وتندفع أمامه ، وأنت لاتعرف السر ، يحفظ وقاره هيبة المجالس ، ويصون كرامة المجتمعات . فلايكون باستطاعة المرء ، الا ان يغضّ الطرف حينما تقع عيناه على هذا الوجه النبيل الذي تنطق ملامحه بالصدق ، والصراحة ،والايمان .

وذهب الفرنسيون وهم يعترفون ان مهابته هي السبب الذي كان يرغمهم على احترامه ، وعدم تحدّيه .

وما يزال الشيخ الى الآن يوحي إلى كل من يراه شعور الخوف

والهلع والاضطراب ، ويوحي إلي جانب هذا ، شعور الثقة ، والغبطة والاطمئنان .

ويقول الذين جاهدوا في ركابه ، وعملوا تحت لوائه، ان المجاهدين كانوا يخضعون له خضوعاً مطلقاً . فلا يجرؤ احد منهم على المخالفة ، والاعتراض ، وان ذلك يعود كله إلى هذه المهابة التي خصه الله بها ، والتي قل أن يوجد لها شبيه ، أو نظير .

الشيخ القائد

حياته أشبه ما تكون بالخيال ، واقرب ماتكون إلى الاساطير ، فهي مزيج من الاسطورة والواقع ، وخليط بين الحقيقة والخيال .

يحدثك عارفو الشيخ ، عن الشيخ الثائر ، والمجاهد ، والقائد ، والحكيم ، فيطنبون في الحديث ، ويستمرون بالاطناب ، حتى ليخالهم السامع ، والرائي ، ينسجون من لحمة الواقع المتناهي ! سدىً للخيال اللامتناهي .

والمحدِّثون جميعاً ، والناس في هذا المحيط لا يزالون يعيشون في غمرة الذكريات ، تنقلهم على أجنحتها الرحبة إلى ذلك الماضي المليْ بالحوادث ، والاحداث ، فيتمثلون امامهم قائد الثورة العلوية ، في رجولته التي لاتعرف الوهن ، وبطولته التي لاتعرف الخوف . ثم تمثلون امامهم هذا البطل الجبار في اوقات الراحة ، يروح ، ويجيْ ، ويظهر ، ويغيب ولا همَّ له الا استطلاع الاخبار ، واستنباط الأمور ، حتى اذا وقعت الواقعة ، وبدأ النزال ، كان أول من أطلق الرصاص ، وأول من بدأ بالهجوم .

وكان يراقب من مكمنه الحصين كيفية القتال في جبهات الثوار وينتقل بمنظاره الكبير ذات اليمين وذات الشمال ، مستطلعاً اخبار جنوده ، ومحصياً عليهم الانفاس ، حتى إذا انتهت المعركة ، وتوقف القتال ، استدعى كل كتيبة ، فاعطاها بعض الملاحظات ، ثم اجرى فيما بينها التغيير والتبديل .

وكان يعين بنفسه رؤساء الجبهـات ، ويرفض أن يدخل بذلك أحد سواه ، ولم يكن له مكان معين ، ولا مقرٌّ معلوم ، فهو في المكان الذي تقتضيه الضرورة ، وتستلزمه الواجبات ؛ وقد حدثنا المجـاهدون ان كل كتيبة من الثوار كانت تحارب بحماس ، وهي تحسب ان الشيخ معها ، وانه يشد أزرها ، فتستبسل ، وتستأسد ، وتظهر من ضروب الشجاعة ، مالا يصدقه عقل ، ولا يقبله منطق. وكان يعزز هذا الشعور ملاحظات الشيخ المستمرة في نهاية كل معركة ، وخاتمة كل هجوم .

ولم يكن يرفه نفسه بشيء زيادة عن الجنود ، بل كان يأكل ممـا يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، ويعيش حيـاة التقشف والشظف ، والخشونة ، كما يعيشون . ولولا كـــــثرة الحذر ، وزيادة الاحتياط ، وتنقلاته الخفية بين حرّاسه الأوفياء ، لما كانت تمتاز حياته في مظهرها عن حياة جنوده العاديين . واما في الجوهر فقد كان جندياً ، وقائداً بنفس الوقت ، وبكل ما في هاتين الكلمتين من معنى واسع شامل .

حدثنا أحد اركان حربه الضابط الباسل جميل ماميش ، ان الشيخ كان محبوباً من المجاهدين ، ومطاعاً بوقت واحد ، وأنه لم يَرَ في حياته ، ولم يسمع ، عن قائد كان له مثل هذا التأثير المطلق على الجنود والأهلين .

وحدثنا عن عبقريته العسكرية كقائد ، وكيف كانت تظهر واضحة . في تسييره للمعارك ، وهيمنته عليها ؛ وانه كان يحتفظ باحتياط كاف لانقاذ كتائبه من الضغط ، وانجاد غيرها عند اللزوم ، وان الثورة كانت بامكانياتها المادية ، والمعنوية ، تتوقف على الشيخ ، وعلى الشيخ وحده ، دون سواه . وان آراءه في تسيير المعارك وتوجيهها كانت تصيب ولا تخطىء ، وتتحقق تنبؤاته عنها تحققاً عجيباً غريباً .

وكان بعد انتهاء كل معركة يجمع الضباط ، ورؤساء الفرق ، ثم يمرون على ساحة المعركة متفقدين مستنبطين ، يستفيدون من اخطائهم وأخطاء غيرهم ، ويجمعون المعلومات الكافية عن وجهة نظر العدو ، بالدفاع والهجوم . وعن الطرق التي يؤثرها على غيرها .

وكانت تعينه في تجاربه هذه ، ودراساته هاته ، معرفته التامة بطبيعة الأرض ، وخبرته الفائقة في مسارب الجبال والوديان . وإلهام داخلي كان له ابعد الأثر في تكييف رأيه ، وتسييره في الطريق التي يريد

وليس الشيخ بخريج مدرسة عسكرية ، ولا هو بقائد نال مركزه

هذا عن طريق الترقي المستمر ، وإنما هو رجل محارب شجاع ، اكسبته التجارب ، والمران ، خبرة عسكرية حيرت ضباط العدو ، وافزعتهم ؛ وكان لها الفضل الأكبر في ثبات الثورة كل ذلك الأمد الطويل .

والتاريخ يحدثنا أن كثيرين من مشاهير القواد ، خرجوا من صميم الحاجة ، ولم يخرجوا من صميم الجامعات والمعاهد ، وانهم بذّوا أقرانهم الآتين عن طريق المدارس والشهادات .

وبعد : فان مدرسة الحياة ارقى من أية مدرسة ، وأعظم من أية جامعة ، فهي المربي الأكبر والمعلم الأول .



معاملته للثائرين

كان الشيخ في الأوقات التي تهدأ فيها حدة المعارك؛ ويخمد لظاها؛ لايني عن تعليم الثائرين طرق الرماية الدقيقة، ويمرنهم على ذلك تمريناً مشوقاً جميلاً — كأن يضع لهم الجوائز، ويعلق لهم الشارات، او يحتفي بهم في المجتمعات، مما نزيد في رغبة الثائرين، ويدفعهم للاهتمام بذلك اهتماماً شديداً، يأخذ اكثر اوقاتهم في فترات الهدوء.

كما انه كان يمنعهم من ارتداء الملابس المغاير لونها للون الأرض ويحول بينهم وبين الخنادق في السهول المنبسطة حتى لايكونوا هدفاً صالحاً للطائرات، وانما يرغمهم على التستر وراء أحجار مجموعة؛ وفي ظل أكوام من «الحطب» اليابس. وكان يجلب لهم المغنين القرويين، يغنون لهم القصائد النارية، والأشعار الحماسية، فتلتهب نفوسهم، وتضطرم صدورهم. وكان يوزع عليهم الاسلاب والغنائم. ويحضر بنفسه اعداد الطعام وتجهيزه لهم، ويشرف على ذلك إشرافاً عميقاً دقيقاً، ويوليه جزءاً كبيراً من عنايته واهتمامه.

كما أنه شكل محكمة «انضباط» للثائرين فكان يحاكم كل «مخالف»

ويحكم عليه بما يستحقه من العقوبة، ويستوجبه من القصاص .

وقد شكل فرقاً للتفتيش، واخرى للامن، مهمة الأولى مراقبة الجنود، ومهمة الثانية المحافظة على النظام، وبقوة هذا التنظيم الرائع، وذلك الايمان القوي استطاع ان يقف في وجه الجيش الفرنسي الذي قهر الألمان يومئذ في الحرب، وانتصر في أعنف معارك الدنيا .

البدوي رسول فيصل

وكان المرحوم الملك فيصل يعتمد الاستاذ بدوى الجبل للقيام ببعض المهام الخاصة لدى قائد الثورة العلوية الشيخ صالح العلي .

وكان البدوي احد القلائل الذين شهدوا اجتماع الشيخ بالشهيد المرحوم يوسف بك العظمة .

ولم يكن يومئذ يعرف بلقب « بدوي الجبل » وانما كان يعرف باسمه الصحيح : « محمد سليمان الاحمد » . وقد افرغ عليه هذا اللقب جلالة الملك فيصل ، لكي يتناسب لباسه « البدوي »مع مهامه الخطيرة في « الجبل » .

وقد أدّى واجب الرسالة بين المليك والشيخ ثلاث مرات متواليات ثم بقي الى جانب الشيخ في قيادة الثورة ماينوف على ثلاثة أشهر ، كان يتوفر خلالها على الاضطلاع بأعباء المراسلة ، والمهام الكتابية الأخرى.

وقد عاقب الفرنسيون بدوي الجبل على موقفه المشرّف من الثورة العلوية ، فحوكم بعدئذ ، ثم سجن ، ثم اقتيد مكبلاً بالاغلال، إلى سحيق المنافي بلا رحمة ولا اشفاق وذلك مما يشرف سمعة «البدوي» ويسجل له في تاريخ الجهاد أنصع الصفحات .

آل عدرة الكرام

ان هذه العائلة الكريمة التي كانت في بدء الثورة تستوطن قلعة الخوابي — بالقرب من الشيخ بدر — قد قاست من عنف الفرنسيين، وشدة بطشهم ماقاست، ولاقت من شراسة جنودهم، ومظالم قوادهم — مالاقت.

وقد توفرت قوى هذه العائلة المادية والمعنوية لخدمة الثورة توفراً كاملاً تاماً، فوقف أبناؤها انفسهم عليها، ونذروا جهودهم لها، وقد احرقت بيوتهم، ونهبت اموالهم، واغتصبت ارزاقهم، ومع ذلك فلم يتوانوا عن القيام بواجباتهم، ولم يتخاذلوا عنها، ولم يتلكأوا عن ذلك في قليل او كثير.

واليك بعض اسماء المجاهدين من هذه العائلة الكريمة.

احمد المحمود: وقد سجن ما يقارب السنة والنصف. كامل المحمود: وقد جرح عدة مرات. عبدالقادر المحمود: وهو مجاهد معروف حسن المحمود، ومصطفى المحمود: وقد نفيا إلى جزائر المارتينيك، وكالدونيا الجديدة. ومحمود المحمود: وقد سجن في طرابلس قبيل انتهاء

الثورة بشهر ، وبقي مسجوناً حتى انتهائها . واحسان المحمود ، وعبد اللطيف عدرة ، ومصطفى عدرة : وقد أبلو في الجهاد خير بلاء .وعبد الرزاق المحمود : الذي كان سكرتيراً للثورة ، وقد افردنا له بحثاً مستقلاً وغيرهم من آل عدرة كثيرون .

ولاشك أن هذه العائلة الكريمة قد بقيت ثابتة إلى جانب الشيخ طيلة أيام الثورة ، وهي تستحق كل مظاهر الاحترام والاعتبار .

سكرتيرية الثورة

كان يقوم بها المجاهد السيد عبد الرزاق المحمود خير قيام، ويؤديها خير أداء .

وكان صفيّ الشيخ ، وكاتم سره، وممثله لدى رئاسة اركان الحرب وواسطته مع المراجعين والموالين .

والذين كانوا يرغبون الاجتماع بالشيخ ، والافضاء إليه ببعض المعلومات ، اويحاولون الاتصال به لسبب من الأسباب ، كانوا يجدون من سكرتيره عبد الرزاق أصلح وسيلة لتحقيق مايرغبون .

وقد أخلص سكرتيره هذا لفكرة الثورة ، وغايتها ، أصدق اخلاص وأحسنه ، فوقف نفسه لها ، ونذر جهوده لخدمتها .

وكان اثيراً عند الشيخ ، يحبه ، ويثق به ، ويعتمد عليه في كل كبيرة وصغيرة .

وكان يحمل مفاتيح « الشيفرة » يحل بواسطتها رموز الرسائل الواردة من الملك فيصل ، ثم يتوفر على تدبيج رسائل الشيخ « بالشيفرة » اليه .

وما نعرف السبب الذي حال بينه وبين اعطائنا بعض الرسائل ! والافضاء الينا ببعض المعلومات !! وان كانت المعلومات التي حصلنا عليها ، والتي نعرضها بين يدي القارئ هي خلاصة وافية كاملة ، لجميع مراحل الثورة بلا استثناء .



النساء العلويات في الثورة

ومن أبرز مظاهر الثورة وأجلى معالمها ، وأخلص نياتها، اشتراك النسوة العلويات بها — وهو اشتراك يفسر لنا مدى تهافت العلويين ، على تلك الثورة الضروس ، حتى ان المرأة كانت تقف فيها إلى جانب الرجل ؛ تعضده باعماله ، وتتحمل جزءاً من مسئولياته ، وتنقل الماء والطعام إلى جبهة القتال . وتجلس وراء زوجها ، أو شقيقها ، تحمسه ، وتشدّد عزيمته ، وتعينه على اعداد الطلقات .

وقد استشهد منهن الكثيرات ابّان المعارك،وفي غضون الحملات فكان هذا الاستشهاد سبيلاً إلى تحميس رفيقاتهن ، واستئسادهن في القتال ، وفي تحملهن التبعات .

وكانت بعض النساء تقوم مقام الرجال ، في الفلاحة والزراعة والحصاد،فيسددن الفراغ الذي أحدثه غياب رجالهن في الأعمال والأشغال.

وان اشتراك النساء في الثورة وفي الاعداد لمادة الثورة ، قد افسح للرجال مجالاً رحباً ، ليظلوا في ساح القتال مثابرين متحمسين .

ومثل هذا الموقف من المرأة العلوية شبيه كل الشبه باختها

العربية الأولى التي كانت ترافق الرجال في الغزوات والفتوح . وتشترك اشتراكاً عملياً في جميع الحروب والميادين .

وان ذلك لما يعود بالفخر على هذه الأمة، ويحفز كل واحد من ابنائها ، على الشعور بواجباته ومسؤولياته ، والتوفر على القيام بها ، ووقف كل ما يملك من حول وجهد لها .

وقد حدثني بعض المجاهدين ، أن أكثر ما كان يثير الحماس بين الثائرين رؤية المرأة العلوية في ساح القتال، تشاطر الرجل تحمّل الأعباء، وتحمل المسؤوليات .

⋈

موقف الرجعية من الثورة

هذا موضوع لولا الأمانة للتاريخ ، لما اثرته في قليل أو كثير ، إذ أنه كما يبدو لأول وهلة من العنوان ، موضوع شائك وعر ، لا يأمن الداخل فيه من العثار .

ولكنني لن أذكر احداً من المسيئين ، وإنما ساقصر هذا الذكر — في غضون التاريخ — على المحسنين وحدهم — لا لأن الكرام قليل كما يقول الشاعر ، بل لأنني اربأ بهذا التاريخ ان تتنكر عليه الصراحة التي لا تتفق مع وضع البلاد السياسي في هذه الأيام .

وإذاً ... فانا مضطر على الا اتعرض بشيء من الايضاح والتفصيل لموقف بعض الرجعيين المغرضين ، من ثورة الشيخ ، وجهاده المبرور ، ولكنني مضطر حرصاً على الأمانة التاريخية . وواجب أدائها، ان اؤكد للقارىء الكريم ان بعض الاشخاص قد باعوا ضمائرهم للفرنسيين بيع السماح وانهم وقفوا من حركة الشيخ موقفاً عدائياً صريحاً ! ولولا أن وقف « بعضهم » مثل هذا الموقف، لما كان كبيراً ان يتبدل التاريخ السوري الحديث، وان تتغير وجهته المعلومة، ويتحول مجراه. ولكن ذلك الموقف النابي من بعض الرجعيين، في مطلع الثورة، وفي غضونها ، وخاتمتها، هو الذي اوصلها الى تلك النتيجة المحزنة ، والخيبة المريرة ، وحال بينها وبين

الهدف المنشود .

وما أعدو الحقيقة والواقع إذا قلت : ان بعضهم كان يرسل اتباعه للانخراط في الثورة ، بغية التجسس ، وارسال الأخبار ، ومن ثم تثبيط الهمة ، واغتيال الشيخ .

ولولا عفو الله ، ويقظة الشيخ ، وسهر رجال أمنه ، لكتب لهؤلاء المتجسسين ، والمريدين ، أن يظفروا ببغيهم منذ بدء الثورة ، ويقضوا عليها في مستهلها .

ولولا عفو الله ويقظة الشيخ ، وسهر رجال الأمن ، لنجحت خطط المتجسسين بالتآمر على حياته، واغتياله عن طريق السم، أو عن طريق ارشاد المدفعية والطائرات إلى مقره ، بواسطة شهب من النار .

ولكن عفو الله ، ويقظة الشيخ وسهر رجال الأمن، كان يحيط كل هذه المؤامرات ، ويقضي عليها في المهد — وان كان بعضها قد نجح بتسميم جسم الشيخ ، واضطراره للاعتكاف في الفراش مدة غير قصيرة .

ومما يعزينا عن موقف بعض الرجعيين العلويين ، أنّ الطائفة العلوية ، بأسرها كانت تعطف على الثورة ، وتساعد القائمين بها ، وان أكثر شباب العلويين ، قد انخرطوا بها بالرغم عن أولئك المثبطين .

افتراءات المغرضين

ولم تخل تلك الثورة الوطنية من بعض العناصر الداسة، المغرضة يندسون في صفوفها للتثبيط والتهديم والتخريب. ويعملون جادين، جاهدين للنيل من كرامتها، والحط من قيمتها، وتشويه سمعتها النبيلة عند المراقبين والحادبين.

كما انها لم تخلُ من بعض الاشقياء الذين كانوا يتخذون من الثورة ستاراً لما يرتكبونه من جرائم، ويقترفونه من مآثم، فينهبون القرى، ويسلبون المارة، ويعتدون على الناس! والثورة براءٌ من هذه الاعمال المجرمة، ومن ادعيائها المجرمين، حتى أن قائدها البطل الشيخ صالح العلي، لم تكن تأخذه بأولئك المجترئين على قدسية الثورة، ومثاليتها، اية شفقة ولا رحمة، بل كان يقفهم عند حدهم، وينكل بهم أشد انواع التنكيل. ولما علم أن أحد المنضوين، تحت لواء الثورة غير بعيد عن تلكم الأعمال طرده ومن يلوذ به، شر طردة، وحرّم على رجاله ان يجالسوه أو يخالطوه.

كما انه لم يدخر وسعاً برد المنهوبات إلى اصحابها، والتعويض عما لحقهم من اضرار.

وقد حدثنا السيد عبد الكريم الرستم ، أن بعض الاشقياء كانوا قد نهبوا قريته — « الصقيلبية » وهم ينتحلون صفة الثوار فارسل بذلك خبراً إلى الشيخ صالح ، الذي اسرع بنفسه إلى تلك القرية ، واحصى المنهوبات، ثم اوفد رجاله إلى كل مكان لاسترجاعها من أيدي السالبين وإعادتها إلى أصحابها ، ولم يغادر القرية حتى أمَّن ذلك جميعاً . وحتى دفع من جيبه الخاص ، ثلاثمائة ليرة ذهبية، بمثابة تعويض ، عما حصل في القرية من أضرار .

وهناك مواقف من هذا القبيل أكثر من ان تعد ، وأن تحصى وهي تعطي الناس صورة صادقة عن حقيقة الثورة ، وعن نبل غايتها ، وبعدها عن الشبهات .

ولكن . . . ماهو ذنب الثورة وذنب قائدها ورجالها ، اذا كان بعض ذوي النفوس المريضة ، قد اغتنموا فرصة الثورة ، وما أوجدته من رجة سياسية، واجتماعية ، في مختلف الأوساط ، فعمدوا إلى السلب والنهب ، متخذين من تلك الرجة السياسية الكبرى سبباً لهذا الاجرام ووسيلة لتلك الشقاوات . وهي حال موجودة حتى في ارقى العواصم، وعند اعظم الشعوب — تشهد بها أخبار الجرائد والروايات، وان الاشقياء في جميع بلدان العالم يغتنمون مثل هذه الفرص للاقدام على مثل هذه الاعمال.

واذا كانت هذه الاعمال اللصوصية التي لا يخلو منها زمان ولا مكان

غير مستغربة في مثل هذه المناسبات ، فكيف إذن في مثل هذه البيئة ، وفي مثل تلك الظروف ؟؟

والتاريخ نفسه يحدثنا أن أمثال هذه الشقاوات ، لم تخلُ منها حركة تحريرية واحدة لا في مشرق الدنيا ولا في مغربها . ومع ذلك فان أحداً من الناس لم يجرؤ على اتهام تلكم الحركات بمثل ما اجترأ عليه بعض الناس في هذه البلاد .

ولكننا مع هذا نعذر بعض المتقولين في ذلك ، والمروجين له ، لأن فقدان الشعور الوطني من نفوسهم ؛ ولأن تربيتهم البعيدة عن الوطنية بُعد السماء عن الأرض ! ولأن عقولهم المغزوة بتعاليم الاستعمار ، ومبادئ الاستعمار ! كل ذلك دفعنا لأن نجد شيئاً من المبررات ، لتلكم الافتراءات والتقولات . فان الاجنبي هو الذي أوحى إلى بعض عملائه بتشويه سمعة الثورة ؛ في غضونها ، وبعد انتهائها ! بالوقت الذي كانت بلاغاتها الحربية — نفسها — تصدر وهي خالية من مثل هذه الاراجيف .

واني أصرح جازماً أن كل من قال أو يقول بذلك فانه كان — ولا يزال — من أعداء الثورة ، وفكرة الثورة ، وبعد انتهاء الثورة ، وانه يحاول ان يستر عداوته لها ، وتنكره عليها ، بتشويه سمعتها ، والحط من قيمتها ، وتلك والله ألأم الطرق وأحط الأساليب .

مادة الثورة

كانت الثورة تعتمد في مادتها على المصادر الآتية :

١ مايستولي عليه المجاهدون من الاسلاب والغنائم ، وما يصادرونه من السلاح والذخائر .

٢ معونة الملك فيصل المستمرة للثائرين .

٣ معونة المرحوم ابراهيم هنانو ، ورفاقه الأبرار .

٤ تبرعات الوطنيين في المدن الساحلية ، والداخلية .

٥ اكتتاب العلويين المستمر للثورة .

٦ ثروة الشيخ صالح ، وأسرته ، وعشيرته ، قدوضعت هذه الثروات جميعها تحت تصرف الثورة .

٧ تبرعات بعض اخواننا المهاجرين .

ومما لاريب فيه ، ولا شك ، ان ثورة جبارة ضخمة ، كتلك الثورة الضخمة الجبارة ، تستهلك في سنيها الثلاث والنصف مقادير هائلة من المال والسلاح ؛ وتستنفد كل القوى المادية المدخرة والمقررة ولكن المعونات المستمرة ، والذخائر التي كان يغنمها المجاهدون من

الفرنسيين ، كانت تغطي حاجات الثائرين اكثر الأحيان . حتى إذا مستهم الحاجة يوماً عمدوا إلى الاستدانة من حماة . وكان موعد الدفع طلوع الحملة ، ونشوب القتال . وقد جرى على السنة الناس هذا المثل العامي : « عالحملة » ، يستعمله الدائن ، والمدين على حد سواء .

وقد ساهم السيد نجيب البرازي ، نائب حماه ، مساهمة فعالة في معونة الثورة ، وامدادها بالمال والسلاح . فهو لم يدخر وسعاً في هذا السبيل . وان له مواقف من الثورة شرفت سمعته ، وسمعة حماه إلى الابد وهو لم يأل جهداً ، مدة الثورة الطويلة عن تقديم المعونات الممكنة اليها ، ووقفه لها كل ما يملك من جهد ، وقوة ، واستعداد . يعاونه المرحوم رشيد طليع ، حاكم حماة في ذلك الحين ، والذي كان أكبر أنصار الثورة ، ودعاتها ، والمخلصين لها .

إن لحماة في تاريخ الثورة العلوية سجلاً خالداً لا تمحوه الأيام .

آل رمضان الكرام

وأما المعونات من امريكا فانها كانت ترد باستمرار، وكان وسيط الورود المرحوم الشيخ محمد رمضان وأنجاله النبلاء. وكان نجلاه: الشيخ يونس، والشيخ أحمد — المعروفين بفضلهما، وتقاهما، وتدينهما العميق — ما يفتآن يتنقلان في شتى مراحل الثورة، وفي أصعب ظروفها وأقسى أحوالها — بين «الشيخ بدر» و«كرم مغزل» و«طرابلس» دائبين على استيراد الأموال، وتسليمها للشيخ باستمرار. وهما غير مباليين بما يتعرضان له من وخيم العواقب، وشديد الأخطار. يعاونهما في ذلك أخوهما الشيخ ابراهيم، والشيخ عبد اللطيف وأبناء عمومتهما من الاسرة الكريمة.

وقد لقيت هذه الأسرة النبيلة من عنت الافرنسيين، وظلمهم وطغيانهم، مالا يحتمل ولا يطاق، ولكن الله جل وعلا قد أنقذ هذه الأسرة الكريمة المحتد من عبث العابثين، وكيد الكائدين — كما أنقذ البشارغة المجاهدين المخلصين — بعد ما قاسوه من أليم العذاب، وجسيم الصعاب.

ولكن الذكريات المريحة فيما بعد — كما يقول اناتول فرانس — ستجلو صدأ الألم عن هذه الذكريات . وستحل محله نعمة الظفر ، ولذة الغلبة . وحينئذ لا يشعر الذاكر المتألم الا بنعمة الراحة والغبطة والاطمئنان .

وهنيئاً للضمير الذي لا تثقله هواجس الخيانة ، ولا تنغص راحته ذكريات الاجرام ان صاحبه لمن أسعد الناس . وانه — والله — لأجدر بالخلود .

◁▷

موقف الاسماعيليين

أما وانـنا نكتب للتاريخ ، وللتاريخ وحده، فانا مضطرون للاتيان على ذكر اخواننا الاسماعيليين في هذا الكتاب . وهو على كل حال ذكر لايسرنا ، ويسرهم ، بل انه ليسوؤنا ويسوؤهم . ونحن من أحرص الناس على دفن الماضي ، بكل مافيه من مآس وسيئات . ولكن ثمة أشياء لايستطيع المرء إغفالها ، وإهمالها ، اذ أن لها علاقة وثيقة بتكييف تلك الثورة الدامية الرهيبة ، وتوجيهها وجهة اصابت حيناً ، وأخطأت حيناً آخر .

وان الأمانة لرواية الحقائق ، وللتاريخ ، تضطرنا لأن نتعرض في بعض الامكنة لتلك الطائفة العزيزة الشقيقة — وهو تعرض لن يكون آلمَ ، ولا أشدّ من تعرضنا لبعض الزعماء للعلويين ولكن التحدث عن جانب ، واغفال جوانب أخرى ، يسيء إلى مبدأ التجرد ، ولا يتفق معه في قليل أو كثير .

على أنني أحب — قبل أن أخوض غمار هذا البحث الطويل — أن الفت نظر القارئ الكريم ، إلى أن الثائرين ، كانوا مضطرين

للموقف الذي وقفوه ضد أخوانهم الاسماعيليين وان هؤلاء قد أرغمهم الأجنبي أولاً على خوض غمار القتال إلى جانبه - كما يقول مؤلف كتاب « الفلك الدوار » الشيخ عبد الله مرتضى الاسماعيلي — ومن ثم اضطروا لحماية انفسهم بعد هجمات الثوار ، التي لم تكن تستهدف لا في صميمها ، ولا في مظهرها ، إلا الهجوم على الجيش المحتل ، وابعاده عن مراكزه في نهر الاسماعيلية ، والقدموس . لأن هذه المراكز — ميمنة وميسرة — كانت تشكل خطراً مباشراً على معاقل الثوار والثائرين .

واذاً . . فان ما حصل بين العلويين والاسماعيليين ، لم يكن وليد طائفية بغيضة ، مقيتة ، وانما كان وليد الضرورة العسكرية من جانب ، ووليد تحريض الأجنبي الدخيل من جانب آخر .

ومهما تكن البواعث والأسباب ، فان مما لاريب فيه ولاشك ، ان الذي وقع ، قد وقع ، وانه لا ندحة لنا عن الاعتراف به ، والاتيان على ذكره - والا عدّنا الناس - الذين شهدوا تلك المآسي ، وأكثرهم أحياء يرزقون - من غير الأمناء على حقائق التاريخ ، وهي تهمة لا نستطيع تحمّلها ، حتى ولا سماعها .

غير أنه لابد لنا من الاعراب عن شعور التقـــدير للطائفة الاسماعيلية المسلمة الشقيقة ، وهو تقدير لا يحتاج التحدث عنه إلى دليل .

وبودي لو أزيلت هذه الفوارق الطائفية = ليس بين العلويين ،

والأسماعيليين فحسب = بل بين الطوائف الاسلامية جمعاء . وحتى بين المسلمين واخوانهم المسيحيين أيضاً . وحينئذ ـ وحينئذ فقط ، يحق لنا أن نفاخر بهذا التراث القومي الذي ورثناه عن السلف ، وحفظناه نقياً سليماً للخلف . وبذلك وحده نستطيع أن نبني كياننا القومي على أساس من الاخاء متين ، وعلى أساس من العقيدة أمتن .

الثورات

في جبل الزاوي ، والمطاكرة ، والهنادشة ، والصهاونة

كان من الخيران نفسح لهذا الموضوع الرحب ، اكثر من هذه الصفحات ؛ فان تلكم الثورات ، بجهادها الدامي ، وحماسها الشديد ، وعاصفتها الجامحة ، تستحق أن نقف لتخليدها المجلدات . وألاّ نقصر التحدث عنها ، على هذا الموضوع المقتضب القصير .

وعذرنا في هذا الاختصار، اننا نكتب عن الثورة العلوية وحدها، ودون سواها ، وأن كل واحدة من تلكم الثورات تستحق - كما بيّنا - بحوثاً مفردة طويلة مسهبة .

وثمة شيء آخر : هو أن الوسائل الكافية لتعريف كل من تلكم الثورات ، غير متوفر لدينا ، التوفر الكافي للتأليف .

وإذاً . . . فاننا سنمر على ذكر تلك الثورات القومية العنيفة ، مروراً سريعاً عاجلاً ، يقتضيه سياق الرواية الموجز ، ويبرره ماذكرنا من ذينك السببين :

فاما ثورة جبل الزاوي ، فقد كانت هذه أعنف الثورات الثلاث

وأشدها عزيمة، وأحدها مضاءً، وتوفر على القيام بها شيخ عشيرة الموالى «فارس العطور»، وغذاها بالعزيمة، وقوة الشكيمة، ابراهيم هنانو. وانضوى تحت لوائها ابناء ذلك الجبل الأشم، وكل من يحمل فكرة قومية، وعقيدة وطنية، من رجال تلك الجهات.

وأما ثورات «الصهاونة» في الحفة، و«الدنادشة» في تلكلخ و«العكاكرة» في عكار، فقد كانت جميعها - مع ثورة جبل الزاوي - تستهدف غايتين في وقت واحد.

أما الأولى: فهي الذود عن حياض هذا الوطن المفـــــدى، واستعادة حريته، وكرامته واستقلاله.

وأما الثانية: فهي تخفيف الضغط عن ثورة العلويين. وتلك والله خطة حكيمة، وطريق رصينة، فان وسائل الثورة العلوية، كانت أكثر بكثير من وسائل تلكم الثورات، وماذلك إلا لطبيعة الأرض، ونفسية السكان المحاربين.

على أنه لم يقدر لتلك الثورات - مع الأسف الشديد - أن تطول فمنها ما خنق في المهد، ولم يقدر له البقاء الطويل، ومنها ما استمر شهوراً، ثم تغلبت القوة الطاغية المدمرة، على قوتي الحق والايمان - فكان من مصيرها المحزن، في هاته الثورات، كما عرف الناس وكما سجل التاريخ.

على أن الفائدة العملية، من تلكم الثورات، قد جاءت متوفرة كثيرة، إذ ثبت للعالم اجمع، أن الشعب السوري لاينام على ضيم، ولا

يصبر على ذل ، وانها لقنت الفرنسيين درساً قاسية لن ينسوها . وربما كان لها الفضل في تبديل عقليتهم المنحطة ذلك التبدل المعروف .

كما أن فضلها في إلهاب النفوس ، وإذكائها، لا يعدله فضل آخر، فهي قد اوجدت فيها الثقة أولاً ، وحركت الحقد الدفين الكامن ثانياً . ثم حشدت الأمة كلها على صعيد واحد من الألم، ووحدة المصاب وآخت بين الجراح الدامية تآخياً أثمر بعدئذ ذلك الثمر القومي المعروف، وشق طريقه الصاعدة في الفضاء، هازئاً بالعواصف، ساخراً من الأنواء .

العقداء

هكذا كان يطلق الشيخ على رؤساء فرقه . وواحدهم « عقيد » .

وللعقيد سلطة كبرى على فرقته ضمن نطاق الاوامر المعطاة له مباشرة من الشيخ ـ الذي كان يعين العقداء ، ويعزلهم ، ثم يستبدل فرقهم بفرق أخرى . ويرفع مرتباتهم العسكرية عند الاقتضاء .

وكان أمر « العقيد » يهمّ الشيخ أكثر مما يهمه أمر الجنود أنفسهم ، فان المعركة كثيراً ما تتوقف على عبقرية القائد ، وجولته وحماسه ، واخلاصه . ولذلك فقد كان ينتقيهم من بين رجاله الأشداء المجرّبين انتقاءً ، ويضعهم تحت سلطته المباشرة ، ليتعرف بنفسه مدى حنكتهم ، وطول باعهم ، وشدة مراسهم ، حتى إذا أنس بواحد منهم دربة ومهارة ، عيّنه « عقيداً » وسلمه زمام الأمر في كتيبته الخاصة وهكذا دواليك ..

وإذا أظهر العقيد بعد ذلك شيئاً من العجز ، أو الضعف ، فانه سرعان ما يستبدله بسواه ؛ ومع ذلك فان أحداً لم يتبرم من ذلك ، ولم ينتقد ، ولم يعترض . وإنما كان يطيع أوامر الشيخ بكل مافي نفسه من خضوع ، وخشوع .

وها هي أسماء بعض العقداء:

عزيز هارون ـ اللاذقية. جميل ماميش ـ اللاذقية. سليم صالح ـ المريقب. محمد عدزة ـ قلعة الخوابي. حبيب محمود ـ بشراغي: جبلة. صالح ميهوب ـ بشراغي ـ طاهر الخطيب ـ جيبول ـ جبلة. اسبرزغبي ـ قرقفتي: بانياس. جابر ميهوب ـ الحطانية: بانياس. كامل المحمود ـ قلعة الخوابي: طرطوس. عزيز برير ـ قنية عطره: بانياس. حامد ميهوب ـ بيت ميهوب: طرطوس. انيس ابو فرد ـ طرطوس. فهد الشاكر ـ وادي العيون. عباس احمد ـ المريقب: طرطوس. ابراهيم صالح ـ البودي: جبلة. محمد ابراهيم الشيخ ـ العنازه: بانياس. خليل الخطيب ـ برمانة: بانياس. علي مفلح ـ سنديانا: جبلة. جبور مفلح ـ سنديانا: جبلة. ابو علي العجي ـ وادي العيون: مصياف. احمد عليا جديد ـ دوير بعبدي: جبلة. محمد الديوب شلهوب ـ وادي العيون: مصياف. مصطفى خير بك ـ وادي العيون: مصياف. مرشد شيحا ـ خرائب سالم: جبلة. محمد الخدام ـ رستي: مصياف. عباس حبيب ـ الاندروسه: طرطوس. يوسف عيد ـ جبلة، وأخوه سليمان عيد ـ جبلة. خليل الخطيب ـ جيبول: جبلة. مصطفى كروم ـ سنديانا ـ جبلة. هاشم اسماعيل حسان ـ بخنين: طرطوس.

وثمة عقداء آخرون لا تحضرني اسماؤهم مع الأسف الشديد.

وقد استشهد من هؤلاء عدد غير قليل ، وحكم أكثرهم بالاعدام ثم استطاعوا النجاة بوسائل غريبة مدهشة، بعد متاعب ومشاق لا يتسع لذكرها هذا القرطاس .

واحد كبار العقداء الضابط جميل ماميش الذي مر ذكره عدة مرات ، والموفد من قبل جلالة الملك فيصل ، فانه لم يستطع النجاة من الاعدام ، إلا بعد استخفائه مدة ، ثم ظهوره بين الناس باسم « محمد جميل صالح » وبهذه الحيلة وحدها استطاع النجاة ، والاحتفاظ بحياته حتى الآن . . . فتأمل !

الاعمال الحربية في بلاد العلويين

= مترجمة عن الكتاب الذهبي الفرنسي =

أحببنا أن ننقل للقارئ الكريم بعضاً مما كتبه الفرنسيون انفسهم ، عن الثورة العلوية تحت هذا العنوان . مستشهدين بهم على غرار القول المأثور : والفضل ماشهدت به الاعداء .

وقد عهدنا للسيد الياس يعقوب بترجمة هـــذه الفصول « من الكتاب الذهبي الفرنسي » الذي توفر على ذكر الانتصارات الفرنسية وقد استهل الـكاتب كلامه عن المجاهدين العـــلويين أولا بكلمة « عصاة » ، ثم أفرغ عليهم بعد لأي لقب « ثوار » . ثم شرع بعدئذ يتحدث عن الاعمال الحربية في جبال العلويين ، وذلك وحده دليل كاف عن مدى تقديرهم لتلك الثورة ، ومدى قلقهم ، ومخـاوفهم ، منها ونظرة واحدة إلى هذه الفصول تعطي القارئ صورة واضحـة عن اتساع تلك الثورة ، وعنفها ، وأهميتها .

ولسنا بحاجة لأن نلفت انظار القارئ الكريم إلى أن الفرنسيين يتحدثون من جانبهم هم . ومما يتفق مع مصالحهم في رواية الحوادث والتاريخ ! ومعنى ذلك انهم لا يعـترفون — كما يدرك بالبداهة — الا بجزء واه ضعيف من الحقيقة .

ولكن هذا الجزء الواهي الذي يعترفون به ، يشعر القـارئ الذكي ان تلك الثورة قد اقتضت مضاجع الفرنسيين زمناليس بالقليل وآذتهم في كرامتهم ؛ و كبريائهم ، ومجدهم العسكري .

وإلى القارئ بعض الفصول مترجمة عن الكتاب الذهبي الفرنسي معتذرين لأن المجال لا يتسع لنشر كل ما كتبوه عن الثورة وهو يقع في عشرات الصفحات .

احتلت جيوشنا مدينة اللاذقية في أواخر عام ١٩١٨ وعلى الأثر اعلن بعض العلويين العصيان علينا وكان يقودهم ويدير شؤونهم الشيخ صالح العلي أحد الرؤساء الاقطاعيين في البلاد. وقد استطاع ذلك الطاغية الشيخ صالح وأنصاره أن يحتفظوا بالجبل العلوي حتى نهاية عام ١٩٢١ ولم ينفكوا طيلة هذه المدة يهاجمون وينكدون مراكز جنودنا وجرائدنا. وكانوا أحياناً يقلقون المدن الكائنة على الشاطئ. في هذه المنطقة من بلاد العلويين خاض جيش الشرق اولى المعارك الهامة، نذكر بعضها باختصار:

في أواخر سنة ١٩١٨ حصلت مناوشات بسيطة بين جنودنا والعصاة لاتستحق الاهتمام والتسجيل.

في أوائل سنة ١٩١٩ هاجم العصاة بعنف فرقة من رجال الأمن مؤلفة من فرقتين جزائريتين، تحمل مدفعاً جبلياً من عيار (٦٥) تحت قيادة نائب الزعيم «جان». ولما كان تفوقهم العددي ظاهراً، فقد اضطرت قواتنا أن تهبط إلى أسفل الوادي، لكي تدفع هجومهم، وتكسر نطاق الحصار الذي ضرب حولها. فاستمرت المعركة طيلة النهار، وامتازت بالأعمال الباهرة التي قام بها الجنود التابعون لكل من «كارو» و «كيفر». فانهم أنقذوا الطليعة التي اشتد عليها الضغط، وجرح رئيسها الملازم طحاني، جرحاً مميتاً، ثم استولوا على المركز الذي كان

يحتله العدو ، وتولوا – إلى أن أرخى الليل سدوله – حماية نقل العتاد والجرحى ، وانكفاء الفرقة . وقد قتل في هذا الشباك ستة من رجالنا (كذا !) بينهم ضابط واحد ، وجرح اربعة وعشرون بينهم ضابطان وهذا يعادل عشر القوة (كذا !) لكن العدو مني بخسائر فادحة .

جبال العلويين

تتكون المنطقة العلوية من كتلة جبلية مرتفعة ، وعرة المسالك ذات نتوء عنيف ، شديد ، يقطنها شعب محارب ، يخضع خضوعاً أعمى لرؤسائه الاقطاعيين . وقد أعلن شيخهم العصيان علينا منذ نهاية ١٩١٨ ومن ذلك الحين حتى نهاية ١٩٢١ لم ينفك الشيخ صالح وانصاره، الذين يقطنون منطقة الشيخ بدر ، يظهرون عداءهم ، وذلك بمهاجمتهم مراكز جنودنا وفرقنا . والتنكيل بحلفائنا الاسماعيليين ، الذين كانوا يساعدون جيوشنا في حربها ضد العصاة العلويين . ولم تتح لنا الوسائل التي كانت في حيازتنا أن نتغلغل في المنطقة الجبلية . اذ لم نكن نسيطر في أواخر عام ١٩١٠ الا على الساحل وما يتاخمه . ومن الشمال على الطريق الممتدة من اللاذقية إلى حلب ، مارة بجسر الشغور .

وقد ازدادت هذه الحالة سوءاً بمرور الزمن ، وذلك بسبب الدعاية التي يبثها الترك (كذا !) ، والملك فيصل في الشام، والامدادات التي كانوا يرسلونها . فان فريقا من العلويين قد ساهموا في الأعمال التي

قام بها الزعيم « بدري بك » في جسر الشغور وادلب، وذلك في دسمبر ١٩٢٠ ومنذ هذا الوقت ظلت الاعمال الحربية التي كانت تقوم بها الفرق الفرنسية غربي حلب ، بعيدة عن الجبل العلوي ، حيث ينتظم العصيان ويقوي يوماً فيوماً . وما اقبل شهر ابريل حتى عمت الثورة كافة البقعة الكائنة بين القرداحة شمالاً ، وصافيتا جنوباً ، والعاصي شرقاً ، ورواق ساحلي ضيق غرباً ، وقد بلغت الجسارة بالثوار مبلغاً عظيماً إزاء ضعف القوات الفرنسية المعسكرة في المنطقة. وبات الخطر يهدد المدن الساحلية مباشرة . وقد حدثت عدة هجمات عنيفة على جبلة وبانياس وطرطوس ، ولولا تدخل اسطولنا لتمكن الثوار من التمركز في هذه المدن. ولذلك أصبح من الضروري القيام بعمل واسع النطاق بسبب وعورة الأرض وقيمة الثائرين الحربية ، وكثرة عددهم ، حتى يتم اخضاع الجبل العلوي بأسره . وقد بدأ التأهب لهذا العمل منذ شهر ابريل ١٩٢١ حيث وصلت كتيبة من الجنود الهنود ، وأخرى من الفرقة الاجنبية ، فاصبح من الممكن حماية المدن الساحلية ، وارسال تجريدات تبلغ في طوافها سفوح الجبال ، فانتزعت الكتيبة الهندية الصينية قلعة القدموس في أوائل مايو . وهو مركز جميل كنا نحس انه شوكة في جنبنا ، إذ أنه كان يتيح للثائرين مراقبة الطريق الساحلية ، بين اللاذقية ، وبانياس . وطلب إلى القوات المكلفة بالمساهمة في الاعمال الحربية أن تتجمع في أوائل

ما يوفي منطقة (بَابَنّا) التي كانت قد امتدت اليها الثورة . بينما كانت شبكة من مراكز الجنود تضيق الخناق على المنطقة المتمردة في الشمال والغرب ، والجنوب ، . أما من الشرق فقد أخذت احدى الفرق تتأهب لسدّ منافذ العاصي . وكانت الخطة الحربية ترمي إلى اخضاع المراكز الأربعة التي ينبثق منها العصيان تباعاً :

١ جبل القراحلة في الشمال ، ٢ وادي العاصي مركزه عين الكروم . ٣ السرامطة مركزه محمد جوفين . ٤ منطقة عشيرة الشيخ صالح الخصم العنيد ومركزها الشيخ بدر موطن الشيخ .

وسوف تبدأ العمليات الحربية من الشمال ، لتمتد فيما بعد من الشمال إلى الجنوب ، وستكون تحت قيادة الزعيم « نيجر » تقوم بها الفرق الآتية :

فرقة موران : تتألف من كتيبة أجنبية ، وكتيبة مساعدة مختلطة (الفرقة الثانية والعشرين الجزائرية ، وفرقتين لبنانيتين) وبطارية من المدافع الجبلية من عيار ٦٥ .

فرقة كايمان جرانلور : تتكون من طابورين من السرية الواحدة والعشرين الجزائرية ، وبطارية مدافع جبلية عيار ٦٥ ،

فرقة مينان : تتكون من طابورين من السرية العاشرة

السنغالية ، وكوكبة خيالة ، وبطارية مدافع جبلية من عيار ٦٥ وبعض القطع من عيار ٧٥ يضاف إلى ماتقدم العناصر الآتية :

الفرقة السورية السادسه،طابور من الفرقة السادسة عشر التونسية كتيبة من الجنود الطونكية. وفرقتان مساعدتان وبعض اسراب الطائرات.

وكانت الغاية من هذه القوات الضخمة أن تصبح حين الحاجة تحت تصرف القيادة ، أو تتكتل جماعات ، جماعات ، وتنفذ بعض المهام التي تعهد إليها .

ان تطور العمليات يدخل في ثلاث مراحل :

الطول الاول : احتلال منطقة القراحلة :

ان العمل الرئيسي الذي يرمي إلى احتلال المراكز المشرفة من جبل القراحلة قد تقدمه انتزاع مركزين ، هما بمثابة معبر يؤدي إلى الهدف المنشود : قمة السيران (بشرا) وكيف البير — هكذاوردت بالنص الفرنسي — وذلك في ١٧ و ١٨ مايو . ففي ١٧ مايو منه انتزعت قواتنا بقيادة القائد « بولادبير » قمة « السخابة » بعد معركة قصيرة امتازت بالعنف والشدة . وكانت هذه القوات تتألف من كتيبة تابعة للسرية السادسة عشر التونسية ، والفرقتين الاولى والثالثة السورية ، والزمرة « الطربة » — هكذا ورد اسمها — من الكتيبة الطونكية . وحينما توطدت مراكز الجنود في هذه الأماكن بدأ جس النبض مع

العشائر التي بات الخطر يهددها مباشرة ، كي يحل النزاع بطريق سلمية توفيراً للضحايا . لكن هذا المسعى باء بالفشل — رغم أن بعض زعماء العشائر كانوا مخلصين لنا وكانوا يساعدوننا على الثوار ، وقد اضطرت الفرق ان تتوغل إلى الأمام فشرعت بالهجوم ، وفي ٢٠ مايو كلفت فرقة موران بمهاجمة جبل « سين » — هكذا ورد في النص الفرنسي ولعله جبل قرفيص الواقع قرب نهر السين — تحميها فرقة « كليمان جرانكو » التي تحمي كتف البير — هكذا ورد اسمها — بينما كانت كتيبة من السرية ٢١ الجزائرية تهاجم « شمبوطين » — هكذا ورد اسمها = وقد بلغ الجنود اهدافهم ، بنشاط عظيم ، رغم صعوبة الارض والرصاص الذي يتساقط عليهم بدون انقطاع . وقد دبّ الذعر في نفوس أهالي هذه المنطقة حينما بلغ القدم، فهرعوا شطر الجنوب والشرق ولم نجد الا قرى خالية . ثم سمحنا لبعض السكان بالعودة الى قراهم على على شروط ان يسلموا الاسلحة والذخيرة التي في حوزتهم .

ان النتائج التي حصلنا عليها كانت هامة . وسوف تعظم اهميتها حينما يتم احتلال المنطقة الثانية حيث لجأ إليها بعض الاهالي من المنطقة الاولى ب : الجركس : كلفت فرقة موران بمطاردة الفارين من منطقة القراحلة ، والذين لجأوا إلى الشعرة ، وطلب إليها ان تغذ السير حتى عين الكروم لكي تقوم بتجريد عشيرة الجركس من سلاحها، وبالرغم

من الصعوبات التي كان يتعذر التغلب عليها، والمتوفرة في أرض ندرت فيها السبل ، والامطار التي لا تنقطع عن الهطول ، والثوار الذين يشبهون الجان باختفائهم المفاجيء ، وظهورهم المفاجيء . وبمناوراتهم الشيطانية الغريبة ، رغم ذلك كله استطاعت فرقة موران ان تجتاز الشعرة (كذا !) وتفاجيء أماكن الفارين (كذا !) وتحتل عين الكروم ، وتؤمن الارتباط مع فرقة « دوم » وقد كلفنا إنجاز هذه العمليات الحربية عدداً كبيراً من الضحايا من قتلى وأسرى ومفقودين.

ان حركة الجيوش في جبل اشتهر بالمناعة، والخسائر الفادحة نسبياً، التي تكبدها العدو ، احدثا أثراً عظيماً في نفوس الثائرين الذين أصبحوا بحالة انهيار معنوي كما بدا لنا . لكن الشيخ صالح ذلك الخصم العنيد البطاش جمع الرؤساء وعاهدوه انهم سيقاومون تقدم جنودنا بكل الوسائل . فلم يبق ثمة مناص من المضي في الاعمال الحربية مهما كلفنا ذلك من خسائر .

الطور الثاني :

١ ـ السرامطة : انجز العمل بين ١٢ و١٩ يونيو . وقدر يومئذ عدد البندقيات بـ[١٥٠٠] ، « الف وخمسمائة » يحملها أشخاص محاربون أشداء ذوو عزم . بدأت مهاجمة جبل السرامطة ببطء ، وسبب ذلك انتشار ضباب كثيف ، وهبوب عاصفة ، وأمطار غزيرة ، وكان العدو العنيد

يكر علينا من وقت إلى آخر مستفيداً من حالة الطقس . وفي نهاية ١٢ منه أسرعنا في التقـدم ، بفضل الحزم الذي يسيّر القوات ، والجهود المشتركة التي بذلتهـا فرقتا موران ، وكليمان جرانكور ، وفي ١٩ منه أصبح مركز قيادة الزعيم نيجر في محمد جوفين . وفي هذه المنطقة ظل قسم من الاهالي في قراهم لم يغادروها . إن انتهاء الثورة اذن أصبح على قاب قوسين أو أدنى .

وقد اضطرب العدو بعد احتلال بلاد الشام وملحقاتها ، وقطعت عنه المواصلات، وبقي يحارب بدون أمل . ولكن عناد الشيخ صالح وشراسته، لا تزال تصلي من حولنا النار. ان هذا الرجل خطر، ومخيف. وقد تشرب مبادئ الملك الهارب فيصل ، فأصبح يحارب من أجـله بدون عقل . إنه رجل عنيد حقاً ...!

٢ ـ منطقة المرقب والقدموس : ان الأثر الذي خلفه تقدم الفرق ولّد ميلاً عند بعض الثائرين للاستسلام في المنطقة الكائنة جنوبي الطريق الممتدة بين بانياس ، والقدموس. ومع ذلك فان فرقه « كليمان جرانكور قد اصطدمت في سيرها نحو القدموس بالعصابات المنظمة التي يديرها الملازمون الذين عينهم الشيخ صالح. ودارت بين الفريقين رحى معركة ليست قليلة الاهمية ، حتى استطاعت أن تشق لها طريقاً في ٢٥ يوليو ، وبدأت بمطاردتهم دون أن تتخلي عن « تورن الجرد » — هكذا ورد

اسمه — حيث منوا بهزيمتين داميتين في ٢٦ و٢٨ منه، مما أدى الى بعثرة العصابات. وقد أصبح مركز قيادة الزعيم «بيجر» في القـدموس، وبهذا تنتهي المرحلة الثانية التي كلفتنا ٦٨ قتيلا و٣٢ جريحاً و٣ لم نعرف عنهم شيئاً. إن جميع السرامطة قدموا خضوعهم (كذا!) ماعدا سكان البشارغة الذين لم يعودوا إلى منازلهم، ولم يلقوا سلاحهم، ولكن اعمام الشيخ صالح قد أصبحوا في قبضتنا.

الطور الثالث : احتلال الشيخ بدر

لـكي يستتب الأمن في جميع انحاء البلاد، لابد من القضاء على العصابة التي يقودها الشيخ صالح نفسه، والقبض عليه، إن أمكن، أو السعي لاخضاعه تحت قوة السلاح. وبفضل قرناء السوء [كذا!] الذين يجدهم الشيخ ايما توجه، فان بحثنا عنه ظل بدون جدوى. وأتاحت لنا العملية الاولى التي شرعنا بها في منطقة «وادي العيون» و«عين الشمس» أن نغنم بعض القطعات التي يملكها. وأخيراً في ٤ يوليو هاجمت كل القوى الجاهزة، والمخفورة بالطائرات والمصفحات — بشكل دائرة — مركز الشيخ بدر، واحتلت كل القرى بعد تضحيات قليلة، ومحدودة، أما الشيخ صالح فقد استطاع ان ينجو مع نفر من أتباعه، وذلك بالتجائهم الى مغارة (كذا!) تبعد ٥ كيلومترات عن الشيخ بدر! وقد صدف أن احدى فرقنا سلكت طريقاً لا تبعد إلا ٥٠٠ متر عن ذلك المكان.

لكنه سوف يستسلم في شهر اكتوبر .

وقـد انتهت العمليات الحربية في جهات الشيـخ بدر في ٧ يوليو . واستسلمت كافة المناطق الثائرة .

موقعة محمدجوفين. في١٢يونيو ١٩٢١ ان موقعة محمدجوفين تذكر كلما ذكرت الحملة التي جردت على العلويين لانها ارتدت طابعاً خاصاً. ففي أواخر مايو خيم السلام فوق القسم الشمالي من الجبل لكن العناصر التي امتازت بالحزم ، كعشائر القراحلة، وحلف الدرامطة قد قطعت ابواب المفاوضة ، وكانوا لا يزالون يسيطرون على مركز الجبل (محمد جوفين ، القدموس) والجنوب [الشيخ بدر] . وكانت قواتنا تسيطر على الشعرة التي تعد النقطة الرئيسية ، وتحاصر في الشمال المنطقة الثائرة بواسطة سلسلة من المراكز الموقتـة ، بثها حتى « عرب الملك » على الساحل ، هذا مع العلم ان (قرفيص) لاتزال في قبضتنا ، وأما من الشرق فان احدى الفرق بقيادة (القائد ميثيان) الذي حل محـل نائب الزعيم (دوم الجريح) تحتل المنطقة الكائنة بـين العاصي ، والشعرة ، وتسد كل منفذ على الثوار . ويحتل العـدو بقواته « محمد جوفـين » ، ومنطقة «البشارغة» وهي عبارة عن سلسلة صخرية يشرف عليها ارتفاعان بشكل ثديين .

وقد قرر الزعيم نيجر القائد العام في المنطقة العلوية أن يهاجم منطقة

البشارغة، تحت إشراف الجنرال غورو المباشر. وفي نفس الوقت تلتف حولها فرقة من الجنوب قادمة من قرفيص سائرة باتجاه « محمد جوفين». اما الهجوم المجابه فستقوم به في ١٢ يونيو فرقة موران بعد ان اعيد تنظيمها ... متجهة من الشمال الى الجنوب في منطقة « البشارغة » وهي تتكون من الكتائب الآتية — بقيادة رئيس كتيبة موران :

١ـ كتيبة (قرمش) ـ (فرقة أجنبية)

٢ـ الكتيبة السنغالية « بابار »

٣ـ الكتيبة السورية « اوبج »

٤ـ وتعضدها من الميسرة فرقة « ماجران فرنيريه » وتتألف من كتيبة سورية ، والكتيبة الاولى والثانية والعشرين الجزائرية .

وسوف يتم التطويق من قبل فرقة [كليمان جرانكور] المؤلفة من:

١ـ الكتيبة الاولى والثالثة من الفرقة ٢١ الجزائرية .

٢ـ الكتيبة الطونكية .

٣ـ بطارية مدافع جبلية من عيار ٦٥ . وبطارية من عيار ٧٥. وسيتم انتقال هذه الفرق ليلاً على مرحلتين ، يحيط بهما الكتمان الشديد ، لتصل [صحابة] = نظنه يقصد السخانة] — في ١٠ منه وقريفص = هكذا ورد اسمها = في ١١ حتى تتمكن في ١٢ من ان تتم العملية .

إن هذه الحركة قد رتبت بدون أن يشعر بها أحد. فان رجال الشيخ

يشبهون « السعادين » في غابات افريقيا (كذا !) يرونك ولا تراهم ، ويتنقلون من مكان إلى آخر كما يفعل «السعدان» تماماً . ولذلك اضطررنا للقيام بهذه الحملة الكبيرة بمنتهى التستر. والا افسد علينا عملنا، واضطررنا للتأخر أياماً أخرى .

وفي ١٢ تحركت فرقة « كليمان جرانكور » في « قرفيص » صباحا موزعتين إلى شرذمتين ، تتسلقان تلّين يؤديان الى مؤخرة البشارغة . الكتيبة ٣ من السرية ٢٢ الجزائرية تهاجم الميسرة، والاولى تهاجم الميمنة يتبعهما قائد الفرقة ، وبطارية المدافع والجنود الطونكية، فانتزعت هاتان الفرقتان « زوبي » و « داربابا » بعد أن أبدى المدافعون بعض المقاومة. وأوقعوا بالحملة بعض الخسائر .

وقد تم اتصال القوتين على القمة التي عينت قبلاً حيث وطدت الجنود الطونكية ، نقطة ارتكاز . وكانت منطقة (البشارغة) ثابتة يومئذ. وقد حالت وعورة الارض دون تقدم فرقتي [دوران] و [ماجران فرنيريه] . وفي الحال بدأت مدافع ورشاشات الجنود الطونكية ترمي طرف، ومؤخرة مركز البشارغة فدبت الفوضى في صفوف المدافعين مما ساعد الفرق الشمالية على انتزاع اهدافها . وفي هذه الأثناء اندفع معظم فرقة كليمان جرانكور صوت «محمد جوفين» مرة ثانية ، فقوبلوا بوابل منهمر من الرصاص ، فضربت الجنود الجزائرية حولها الحصار ،

بينما كان رجال المدفعية يدفعون المدافع بأيديهم، والرصاص يتساقط عليهم كالمطر. ثم أخذوا يطلقون النار على القرية الى مدى قريب، فتم سقوطها في آخر النهار. وهكذا حطمت المقاومة العلوية، وأصبنا نجاحاً باهراً.

خاتمة: إن قيام الثورة الطويلة قد أقلق قواتنا في الشرق، وكبدها خسائر فادحة في الرجال والمعدات. وقوى عنصر المعارضة في البرلمان، وفي الصحف اليسارية. ولكن الشعب هنا لا يعرف مناعة تلك الجبال. ولا شراسة وهمجية العلويين الذين يقاتلون بوحشية فائقة لا تعهدها الا عند ابناء الغابات.

ولولا أن الملك فيصل كان يمد الثورة بالمال والسلاح، واستماتة الشيخ صالح، ورجاله بالدفاع ومساعدة السوريين لهم في الخفاء، لما بقيت الثورة كل ذلك الوقت، ولكانت انتهت قبل ذلك بوقت غير قصير.

وأما العفو عن الشيخ صالح، ورجاله الفارين، فقد حتمته الحالة العسكرية، ورغبة القيادة باستتباب الأمن، وهو ما لم يكن يحصل إلا بتسليم الشيخ. وهذا هو الذي أجبرنا على اصدار العفو عنه، بعد الحكم عليه بالاعدام وانا نشارك الرأي العام هنا رغبته في أن يرى الشيخ صالح وهو مكبل بالاغلال، وحافي القدمين في شوارع باريس، ولكن شرف فرنسا العسكري يضطرنا للوفاء بالوعد الذي قطعناه.

هكذا يقول الفرنسيون

عرضنا على القارىء الكريم بعض النماذج عن رأي الفرنسيين بالثورة وتتبعهم لحوادثها ووقائعها، باهتمام ظاهر، وحرص بيّن.

وقد لفتنا نظر القاريء أولاً إلى ان الفرنسيين يتحدثون من جانبهم ويغفلون أمر التحدث عن الجانب الآخر، الا فيما يتفق مع مصالحهم! وسمعة جيشهم! ومركز بلادهم! وهذا أمر غير مستبعد عنهم، ولا مستغرب منهم!

ولا ريب أن المغالطات في هذا السرد للحوادث المتتابعة، امر لا يخفى على ذي فطنة لبيب؛ ومن هذه المغالطات أنهم يتحدثون عن احتلالهم لموقع «الشيخ محمد جوفين» وتمركز قيادتهم في جبلة المنيع، ثم يعودون بعد لأي للتحدث عن الهجوم عليه مرة ثانية دون أن يذكروا ولو بالتلميح أمر انكفائهم عن بعد هجمات الثوار!!

ثم انهم يعترفون بقوة الثورة، وبأس رجالها، ولكنهم لا يتحدثون عن المواقع التي خاضها الجيش الفرنسي مدافعا! ولا عن المعارك الكبرى التي بلغت ضحاياه فيها المئات. وانه ليعرف بالبداهة ان ثورة كبرى

تستغرق ثلاث سنوات ونصف لابد انها استنفدت قوى الفرنسيين حتى استطاعت أن تثبت في وجوههم ذلك الوقت الطويل .

على أن في هذا النشر لبعض ما كتبه الفرنسيون عن الثورة فائدة تنحصر في انها تضع النقاط على الحروف ، وتذكر اسماء الفرق والقواد الذين خاضوا غمار حربها الضروس ، ولولا هذا الكتاب الفرنسي لما استطعنا معرفة اسماء الفرق، حتى ولاشيئاً منها . وان هذا القليل اليسير من كتابة الفرنسيين عن الثورة ، يدفعنا لأن نتوسع في تحليل المعارك وكيفية سيرها، توسعاً يكشف النقاب الصحيح عن أهميتها العسكرية الفائقة . ونحن حراص قبل كل شيء على « الأمانة التاريخية » التي وعدنا القارئ بها في مستهل هذا الكتاب .

لمحة تاريخية موجزة

حينما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤ ودخلتها المملكة العثمانية الى جانب الالمان ، عمد الحلفاء إلى عقد اتفاقيات مع الشريف حسين ، تقضي بتوحيد البلاد العربية ، وتتويجه ملكاً عليها .

وقد نشبت الثورة العربية المعروفة في التاسع من غرة شعبان المبارك سنة ١٣٣٣ ، وانتظم في صفوفها أبناء العروبة الاحرار ، وعمل الجميع يداً واحدة تحت راية العاهل العربي لتخليص بلادهم من نير الاتراك ، لكي تتاح لها حياة الوحدة ، والحرية ، والاستقلال .

ولكن الحلفاء عمدوا فيما بينهم إلى عقد اتفاقية سرية خطيرة ـ هي الاتفاقية المعروفة باسم (سايكس ـ بيكو) ـ تقضي بتجزئة البلاد العربية الى دويلات ، واستيلاء الانكليز على العراق وفلسطين ، وإبقاء مقاطعات الشام الداخلية تحت راية فيصل ، والحجاز ونجد تحت راية أبيه .

وكان من البديهي أن يرفض الرأي العام العربي هذه التجزئة القاتلة ، وأن تهب اكثر أقطاره لاعلان ثورات داخلية تستهدف إعادة التوحيد وإقصاء الاجنبي الدخيل عن ثغور البلاد . وكان على رأس تلك الحركة

السلبية التحريرية الملكان المصلحان فيصل وابوه الحسين . وقد اتجهت حينئذ أنظار المرحوم الملك فيصل إلى هذا الساحل ذي الموقع الستراتيجي الهام ، وبدأ في التنقيب والبحث عن الرجل الذي يستطيع القيام بالثورة المطلوبة ، تعمل على تحقيق ذلك الحلم المرغوب، وطرد الفرنسيين نهائياً من الساحل السوري الذي كان احتلالهم إياه ضربة قاضية على حكومة الشام .

وفي تلك الآونة كان الشيخ صالح العلي قد بدأ في ثورته التي افتتت أنظار الملك فيصل بطابع الشدة، والعنف الذي كانت ترتديه، فكانت محط آماله، ومعقد رجائه، وموضع اهتمامه ، فحوّل اليها انظاره، وبدأ بتوجيهها الوجهة العسكرية الصائبة - يرسل اليها الضباط ، ويزودها بالمعدات ، ويدخر لها كل ما في وسعه من جهد جهيد ، ويبذل في سبيلها كل رخيص وغال. إلى أن هجم الفرنسيون على دمشق فاحتلوها، وقوضوا دعائم العرش الفيصلي ؛ ودخلت جيوشهم حمص ، وحلب ، وحماه ، وبقية المدن السورية القريبة والبعيدة ، في الداخل والساحل فتم لهم حينئذ حصار الثورة من جهاتها الأربع ، حصاراً قوياً متيناً ، لا ينفذ منه الهواء ، ولا ينفذ من خارجه النور .

ومع ذلك فقد بقيت الثورة في عنفها وجبروتها — بعد تقويض دعائم العرش الفيصلي اكثر من سنة ونصف — لا يزيدها الضغط إلا

انفجاراً، ولا يزيدها الحصار إلا اتساعاً. ولا يهدهد من حماسها وعنفوانها ما تلقاه من الندرة في السلاح، والخيانة من بعض الزعماء.

وقد أعطى الشيخ صالح العلي، بذلك الثبات العجيب، مثالاً قوياً للقائلين بان لاخير يُرجى لبلادنا من ابنائها، وباننا شعب كتب له الموت المحتم.

وأنه لمثل قويٌ، لو كان رُجُـله الفذ في الغرب، لأُقيمت له التماثيل الخالدة، في الساحات العامة، وأقيم له نصب تاريخي فريد في كل مكان وزمان.

ولكنه الشرق !! يغمط حقوق الرجال، ولا يحفظ كرامة الابطال!

ولكنه الشرق !! تموت فيه العبقريات، بعد أن يهملها الناس، وتتنكر عليها الخلود!

ولكنه الشرق !! وهل في الجهات الأربع من هو اعقُّ من الشرق، وأقسى على عباقرته المولودين من الشرق ؟!

كيف بدأت الثورة

كان ذلك في ١٥ كانون أول ١٩١٨ حينما وجه الشيخ صالح العلي دعوة عامة ، إلى بعض زعماء ، ووجهاء ، ومشايخ العلويين ، للاجتماع على « الشيخ بدر » احدى نواحي قضاء طرطوس ، وقد لبى الدعوة فريق كبير من أرباب الوجاهة ، والنفوذ ، نخص بالذكر منهم :

السيد احمد المحمود عدرة ، السيد محمد اسماعيل ، الشيخ علي احمد ميهوب ، الشيخ معلّى احمد غانم ، الشيخ محسن حرفوش ، الاستاذ عبد الكريم الخيّر ، الشيخ علي عباس ، اسبر زغيبي ، علي زاهر والسيدين اسماعيل حسان ، ومحيي الدين عدبا اللذين اخلصا للثورة من بدايتها إلى نهايتها ، وغيرهم كثيرون .

وقد تحدث اليهم الشيخ حديثاً مسهباً عن الأخطار المحيقة بلادهم من جراء احتلال الفرنسيين للساحل السوري ، وعن الاخلاف بالوعود التي قطعها الحلفاء للعرب ، في مطلع الحرب وابّانها ، وعن تمزيق البلاد العربية إلى دويلات صغيرة بعضها محتل ، وبعضها مستقل وبعضها منتدب عليه ، وعن الاخطار التي تتعرض لها القضية العربية

من جراء هذا التفريق ، والتمزيق ، وعن النوايا الخبيثة التي يضمرها الفرنسيون للعلويين ، والتي تستهدف ابادتهم،ومحو شعائرهم ،وتذويبهم في بوتقة الاستعمار الرهيب .

ثم توجه اليهم بالسؤال عما إذا كانوا يتضامنون معه لاشعال نار الثورة، وضمّ جبل العلويين ؛ وساحله إلى الشام .

وقد لقي هذا الحديث آذاناً صاغية من المجتمعين.وبدأوا يتناقشون به مدة ثلاثة ايام مستمرة . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة قرّ رأيهم على اتباع رأي الشيخ ، وعلى القيام بثورة جامحة واسعة ، والاتصال بفيصل بن الحسين لمساعدتهم ، ومد يد المعونة اليهم، واقسموا لذلك الايمان المغلظة على الكتاب الكريم . ثم تعاهدوا فيما بينهم على كتمان هذا الأمر حتى تنتهي الاستعدادات ، ويتم الاتصال المباشر مع عاهل الشام .

ولكن امر هذا الاجتماع ، ومقرراته ، قد تسرب إلى الفرنسيين فبادروا إلى اعتقال من وقعت عليه ايديهم من رجال المؤتمر . ثم ارسلوا يطلبون الشيخ بطريقة اعتيادية بحتة ، حتى لا يتسرب إليه شيء من الشك عن حقيقة مقاصدهم ؛ ونواياهم .

ولكن الشيخ لم يكن بحاجة إلى من ينبهه إلى فداحة الاخطار المحيقة به،من جراء الاذعان لمطلبهم، والسعي للاجتماع بهم. فرفض قبول الطلب؛وابلغهم هذا الرفض، الذي كان له وقع القنابل،ودويّ الرصاص.

فوجهوا حملتهم الأولى من القدموس إلى الشيخ بدر ، وكانت قد بلغت الشيخ أخبار هذه الحملة المفاجئة ، فتصدى لمجابهتها مع اربعة من رجاله الاشداء . وليس معهم آنذاك إلا بنادق قديمة ، وطلقات محدودة ، لاتزيد عن عدد افراد الحملة إلاّ قليلاً ، إذ أن استعدادهم لم يكن قد اكتمل . وتأهبهم لم يكن قد تم .

وفي الغابة الكائنة بالقرب من قرية « النيحا » الواقعة غربي « وادي العيون » — أرسل الشيخ من ينذرهم بالرجوع ثلاثاً ، فرفضوا ، وحينئذ بادر إلى اطلاق النار عليهم . والمجاهدون في كمين حصين مستور والجنود في ارض منبسطة مكشوفة ، ولم تطل المعركة أكثر من ساعة فرّ على أثرها الجنود — بعد أن تركوا وراءهم ٣٠ قتيلاً ، وكل مايحملون من ذخيرة وعتاد .

وكان لنجاح هذه المعركة دويّ هائل في سائر الانحاء ، وكان لانتصار المجاهدين فيها أثر بيّنٌ في الأوساط السياسية جمعاء .

وكان للسلاح الذي اغتنمه المجاهدون تأثير كبير في المعارك التي كان الفرنسيون قد استعدوا لها استعداداً هائلاً كبيراً . وما انتشرت اخبار هذه المعركة ، والانتصار فيها حتى تقاطرت افواج الثائرين من كل حدب ، وصوب ، تحدوهم عزيمة غلابة ، واعان بالله ، وبالحق جد متين . وقد عكفوا على بيع دوابهم ، ومنقولاتهم ، وشراء الاسلحة من

كل مكان . كما انهم بدأوا يتدربون – تحت اشراف الشيخ المباشر – على الرماية ، واصابة الاهداف .

وهذه المعركة الموفقة كانت فاتحة الثورة .

كرة الفرنسيين

وقد هال الفرنسيين تلك الهزيمة النكراء التي منوا بها ، في أول موقعة حربية . فاحبوا أن يبادهوا الشيخ قبل أن يكمل استعداده ويتأهب للقتال .

في ٢ شباط ١٩١٩ اعادوا كرة الهجوم على الشيخ بدر، ولكن بقوة أكثر ، واستعداداً أكبر ، وكان الشيخ قد استعد الاستعداد الكافي لذلك ، وزادت يقظة المجاهدين وحذرهم ، وكان للظفر السابق قوة معنوية كبيرة في نفوسهم ، وما هي إلا جولة قصيرة وسط معركة حامية الوطيس ، حتى ولى الجيش الفرنسي الادبار . تاركاً وراءه عشرين قتيلاً ، وثلاثة أسرى . وعدداً كبيراً من الذخائر والغنائم . وقد كان لهذا الظفر الجديد أثر داخلي قوي ، وأثر خارجي أقوى ، ضعفت على أثره هزيمة الفرنسيين ، واستولى على نفوسهم شعور القلق ، والخوف ، وبدأوا يدركون وخيم العاقبة ، وسوء النتيجة إذا ما لجأوا إلى بعض وسائل الاحتيال .

رسالة الجنرال اللمبي

وفي ٢٥ ايار ١٩١٩ وجّه الجنرال « اللمبي » — قائد جيوش الحلفاء في الشرق — كتاباً إلى الشيخ صالح العلي ، مع رسولين بريطانيين، كان يرافقهما اسماعيل بك الهواش ، الزعيم العلوي المعروف . ومما ورد في الكتاب :

« إن الحلفاء قد جاءوا لتحرير سوريا من ظلم الأتراك ، واعطائها الحرية والاستقلال ! ولذلك فهو يستغرب — أي الجنرال — ان يقف الشيخ صالح العلي ، ورجاله ، من الحلفاء هذا الموقف ، الذي يدل على عدم تقديرهم للمساعدات القيمة التي اسداها الحلفاء إلى بلادهم المحررة من ربقة الأتراك .

وطلب الرسولان ، والوسيط الكريم ، أن يسمح الشيخ للجيش الفرنسي المرابط في (القدموس) بالمرور عن طريق (الشيخ بدر) إلى طرطوس ، والحفو بالطلب — الذي لم يكن يخلو من بعض عبارات الرجاء .. متعهدين على انفسهم ألا يقف الجيش في الطريق إلا بمقدار ماتستلزمه الراحة العابرة ، بعد شرب الماء . ومن ثم يتابع الجيش طريقه المرسومة بلا توقف إلي طرطوس .

ولما كانت فكرة الثورة ، هي في بدء تكوينها ، تحتاج إلى بعض الوقت ريثما ينتهي التأهب ، ويكمل الاستعداد ، وريثما ترجع الرسل التي اوفدها الشيخ إلى دمشق ، وإلى سائر انحاء الجبل ، تستنفر الناس ، وتحمل الذخائر ، وتستورد السلاح .

ولما كان المجاهدون بالوقت نفسه ، محتاجين إلى بعض الوقت . لكي ينظموا صفوفهم ، ويضاعفوا انصارهم ، ويجمعوا قواهم المفرقة ، المتشعبة ، في حشد هائل كبير .

رأى الشيخ بثاقب بصره ، وصائب نظره ، وبحنكته المعروفة ، ودربته ، واختباره ؛ الا يخاصم الانكليز والفرنسيين بوقت واحد .

وازاء هذه العوامل كلها قَبِلَ الشيخ ، بطلب « اللمبي » — على الأ يُسمَحَ للجيش بالتوقف في «الشيخ بدر» إلا ساعة واحدة ، وعلى ألأ ينصب خيمة ، ولا ينزل حمولة .

فقبل الرسولان بهذه الشروط ، وتعهدا بتنفيذها ، وانسحب الشيخ ورجاله من موقع « الشيخ بدر » إلى التلال المحيطة به من جهة الجنوب والغرب .

خيانة الفرنسيين

ولما وصل الجنود الفرنسيين إلى موقع « الشيخ بدر » اتخذوا من فرصة الساعة المعطاة لهم، والمسموح لهم فيها بالتوقف والاستراحة مجالاً لنصب مدافعهم ، واخذ الاستحكامات بسرعة فائقة ! ثم باشروا باطلاق النار على قريتي « الشيخ بدر » و « الرستن » فهدموا بيوت الشيخ واشعلوا فيها النار .

ولما رأى الشيخ ورجاله ، هذه الخيانة الدنيئة من قوم إئتمنوا فخانوا الأمانة ، وما حفظوا الكرامة ، غلي الدم في عروقهم ، وثارت الحمية في رؤوسهم ، فانقضوا على ذلك الجيش الخائن من الجبال انقضاض الصاعقة من أعلى السماء . وامطروه بوابل من الرصاص المتساقط عليه تساقط المطر . وكان مايزال في حال أشبه بالفوضى منها بالاستقرار . وموقع الثائرين يجعلهم يستحكمون بالجيش ، ويتحكمون به .

وبقيت هذه المعركة مستمرة من وقت الظهيرة حتى منتصف الليل ، وقد قتل فيها أكثر أفراد الجيش ، وفر الباقون تحت جنح الظلام تاركين وراءهم من الغنائم الحربية مالا يعد ، ولا يحصى . وكان من نتائج هذه المعركة أن دب الذعر في صفوف الجيش الفرنسي ،

واستولت عليه الرهبة والمخاوف ، حتى كان للوساوس من تفكيره نصيب كبير .

ومما لاريب فيه أن الثورة بعد معركة « الشيخ بدر » قدبدأت تسفر عن وجهها الصحيح العنيف ، وأصبحت مناطقها المأهولة ،محرّماً دخولها على الغرباء والمشتبه بهم من الادنياء .

واضطر المجاهدون إلى أن يبثوا العيون والارصاد هنا وهناك ، متيقظين حذرين ، حتى لايؤاخذوا على حين غرة،ولا يبادهوابالهجوم وقد نبهتهم خيانة الفرنسيين إلى الاحتراز ، والحيطة ، والحذر ،فاضطر الشيخ إلى أن يبقي معظم المجاهدين متأهبين ، للقتال ، ومرابطين في أعلى الجبال وتوافدت مواكب المتطوعين في صفوف المجاهدين ، حتى اصبحت البقعة المحيطة بالشيخ بدر مملوءة بالمجاهدين الوافدين من مختلف الجهات . وقد وُزِّع عليهم السلاح ، وعُين على رأسهم « العقداء » وبات الجميع متأهبين منتظرين .

موقعة بيدر غنّام

او

وادي ورور

ولم تبزغ شمس ١٥ حزيران ١٩١٩ حتى بدأت طلائع الجيش الفرنسي ، تبدو جلية لأعين الثائرين المرابطين في أعلى الجبال .

وقد بلغ الشيخ أوامره الى المجاهدين، أن يظلوا في معاقلهم ، ولا يحركوا ساكناً الا بعد أن ترفع لهم راية الثورة — وهي قطعة من الأخضر وسطها هلال ونجم .

وانتظر الشيخ حتى توسط الجيش ذلك الوادي الرهيب وطلائعه وحدها قد ملأت الوادي ، وغمرت جنباته الفسيحة ، وهي تتخايل في مشيتها كأنها ذاهبة إلى محفل ، أو راجعة بعد انتصار . وفي السماء طائرتان تجوس الديار ، وتبعث الأخبار . والمجاهدون قابعون وراء الصخور في أعالي الجبال يرون كل أحد ، ولا يراهم أحد . ويدُ كلٍ منهم على على زناد بندقيته بانتظار أوامر الشيخ .

وفجأة رفعت الراية الخضراء . فارتفعت معها أصوات التهليل

والتكبير . وكأن السماء قد انشقت عن شهب من النار، وكأن الأرض قد اطلعت كل مافي جوفها من حمم تقذفها براكين صخابة هائجة . وتساقط الرصاص من كل مكان . وكأن سيلاً زاخراً مندفعاً قد جرف كل مافي طريقه من بغال يقودها الرجال ، ورجال تدوسهم البغال . واختلط الحابل بالنابل ، وبدأت المدفعية تحمي مؤخرة الجيش بالطلق على غير هدى والى غير هدف وملأت سحب الدخان والغبار جنبات ذلك الوادي حتى أصبحت أشبه ماتكون بالضباب .

وانتقل المجاهدون — على رؤوس الجبال — من المقدمة إلى المؤخرة فاحاطوا بالحملة من جميع الجهات ، واطبقوا عليها من سائر الانحاء . واغرقوها بوابل من الرصاص المنهمر كأنه المطر الزاخر. وظلت المعركة سجالاً النهار الطويل، حتى منتصف الليل، ثم انجلت عن حوالي ثمانمائة قتيل وجريح . وعن أسر ستة عشر جندياً ، وعن اعداد هائلة من الذخيرة تكفي لتموين المجاهدين مدة طويلة . واستشهد في هذه المعركة مجاهدون ، وجرح آخرون . وكان بين الشهداء مصطفى خيربك وابنته الوحيدة التي كانت معه في القتال .

وكان منظر ذلك الوادي بعد أن انجلت تلك المعركة الرهيبة عن احمرار الأرض واسوداد الافق ، رهيباً حقاً . فما كان يرى الا اشلاء القتلى ، المختلط بعضها ببعض ، والممتزجة دماؤها بعضها ببعض

وهناك في ذلك الوادي المدمى ، تآخى الانسان والحيوان ، فامتزجت دماء الرجال ، بدماء البغال . وتراكمت الجثث بعضها على بعض ، تراكماً مدهشاً غريباً . وكانت الذخائر الكثيرة ، المبثوثة هنا وهناك ، تدل على عظم المسئولية الملقاة على عاتق تلك الحملة الهائلة .

فـترة هدوء

وهدأت الحال قليلاً بعد تلك المعركة الجبارة ، واندحار الفرنسيين ذلك الاندحار الهائل المريع . وبدأ الفريقان يستعدان استعداداً كبيراً ويهيئان لذلك ما يلزمهم من وسائل واسباب .

وخيّم على تلك الأنحاء سكون أشبه مايكون بالهدنة الطبيعية توفر فيها الفريقان على حشد القوى ، وتدريبها ، وتنظيمها . وعمد الشيخ إلى اجراء تنسيق عام في صفوف المجاهدين ، واوجد في قيادة الثورة « محاسبة » تعنى بتوزيع السلاح والذخائر ، والاحتفاظ باحتياط كاف ، يدخر إلى مسيس الحاجة .

ولكن ذلك لم يخلُ من حوادث لاتستحق التسجيل ، ولم يخلُ من اصطدامات فردية او عادية ، لايهمنا أن نعنى بها ، ونفرد لها جزءاً من هذا الكتاب . فنحن معنيون قبل كل شيء بالحوادث الكبيرة ذات القيمة العسكرية السياسية ، والتي ترتدي طابعاً خاصاً من الشدة والعنف .

الهجوم على قرى الاسماعيليين

وفي اواسط تموز ١٩١٩ زحفت قوة كبيرة من طرطوس، عن طريق نهر الاسماعيلية . واستقرت في قرية « عقر زيتي »، وفي القرى القريبة من منها ، وكان هذا الاستقرار يشكل خطراً مباشراً على ميسرة الثائرين . وقد هجمت تلك القوى على « قلعة الخوابي » موطن المجاهدين « آل عدرة الكرام » فاحرقتها ، ولم تبق من بنيانها حجراً ، ولا في أنحائها أثراً . كما ان أفراد الجيش الفرنسي : ما فتئوا يقطعون الطريق على المارة العلويين ، فيسومونهم انواع العذاب ، ويتركون جثثهم ملقاة على قوارع الطريق ، بعد أن يمثلوا بها أروع تمثيل . ولما كان لهذه الاعمال البربرية صدى سيء في جميع الاوساط ، وكان من غير الممكن السكوت عليها ، أو التغاضي عنها ، فقد وجه الشيخ انذاراً سريعاً إلى الاسماعيليين باجلاء القوات الفرنسية عن أماكنهم ، وقرأهم او بجلائهم انفسهم عن تلك الاماكن والقرى ، كي لا يتعرضوا للاضرار التي قد تصيبهم من جراء هجوم المجاهدين على جيش العدو ، وقد أكد الشيخ في انذاره هذا ان المجاهدين لا يستطيعون السماح للجيش الفرنسي بالتمركز في تلك الجهات ، نظراً لما يشكله ذلك من خطر مباشر ،

ودائم على معاقل الثوار .

ولكن الاسماعيليين رفضوا الجواب على ذلك الانذار . ولا نعرف السبب الذي دفعهم الى هذا الرفض . الا أنهم لم يستطيعوا الإجلاء الجيوش الفرنسية عن واديهم المأهول ، وهذا أمر بديهي معقول . أو لسبب آخر لانعرفه نحن ، وقد لايعرفونه هم .

ولكن المعروف أن الاسماعيليين قد رفضوا ، وان الجيش قد أصرّ - بالطبع - على البقاء ، والتمركز في تلك الاماكن الحصينة . فاضطر الشيخ إلى الهجوم الذي لم يكن يستهدف الا قوى الفرنسيين دون سواهم ، وأحاط بالقرى الاسماعيلية من ثلاث جهات واغرقها بوابل من رصاصه المتواصل المنهمر .

ودامت المعارك اياماً طويلة ، لاتخمد حدتها ، حتى تشعل جذوتها ولا ينطفئ لهيبها ، حتى يشتد سعيرها . وقد اضطر العلويون إلى الهجوم الذي لم يكن يستهدف الفرنسيين – كما بيّنا – . وكان القتال عنيفاً بين الاسماعيليين والفرنسيين من جهة والعلويين من جهة ثانية .

وانتهت تلك المعارك العنيفة بانسحاب الجيش الى طرطوس ، بعد ان تكبد ، وحلفاؤه الكرام ، خسائر فادحة في الاموال والارواح .

ومما يؤسف له حقاً ان تكون لحقت اضرار كبيرة باخواننا الاسماعيليين – الأمر الذي استغله الاجنبي الى حد بعيد ، فاوقع الفتنة

والشقاق بين الطائفتين الشقيقتين — اللتين دُفِعَتا الى ذلك الخصام دفعاً ، وأجبرتا عليه اجباراً ، فنتج عن ذلك كله بعض الحوادث الدامية التي يندى لها جبين الانسانية خجلاً وحياءً ، والتي تترك أثراً مؤسفاً - من الحزن على الوحدة الوطنية - لا تمحوه الايام .

ولكن العقلاء من الطائفتين الشقيقتين هبوا - كما يقول بشارة الخوري :

يغسلون الجراح بالسلسل العذب - ويجرون كل خلف وفاقا

وكان لموقف الشيخ صالح من الاسري الاسماعيليين أثر محمود في اوساطهم الواعية - وما اكثر اوساطهم الواعية ، اذ انه رعاهم وحماهم وصان نساءهم ، واطفالهم ، من كل اذىً ومكروه . وكانت بعض النسوة قد هربن ، فوقعن اسيرات في ايدي المجاهدين . ولما بلغ الشيخ ذلك أمر بردهن مخفورات إلى بيوتهن بعد ان زودهن بالكثير من المال . من هاته النسوة زوجة « ابي صقر محمد العيزوقي » من قرية (كفرية) الواقعة على نهر الاسماعيلية ، والتي ماتزال واهلها يتحدثون عن تلك المعاملة الحسنة إلى الآن .

ولا ريب أن آثار الحروب سريعة الزوال ، قريبة النسيان، وان جراحاتها الدامية ، لا يطول عليها الوقت حتى تندمل ، ولا يبقى لها من أثر غير الذكريات التي يقابلها الحليم بابتسامة هادئة وادعة ، والمغضب

بابتسامة حمقاء لا تلبث ان تتلاشى .

واني استميح القارئ الكريم عذراً ، اذا وقفت به من الهجوم على قرى الاسماعيليين عندهذا الحد المقتضب، ولم اتجاوزه الى الاسهاب والتفصيل ، كما يحتم عليّ الواجب الادبي والامانة للتاريخ ان افعل وخصوصاً ان المعارك التي دارت رحاها على نهر الاسماعيلية، وفي واديهم السحيق ، تستحق من وجهة « الفن » ان يعنى بها ، وان يقف لها الكاتب اكثر من هذه الصفحات ؛ بالنظر لما كان لها من اثر مادي في تكييف الثورة وتوجيهها ، ولأنها اولى المعارك العنيفة الصاخبة في تلكم الثورة الجبارة المشتعلة ، ولأن هذا العنف ، وذلك الصخب ، وكثرة ما انتجاه من ضحايا بين الفرنسيين ، واوقعاه من خسائر ، قد ارغما الحكومة الفرنسية على طلب المصالحة مع الشيخ صالح — كما سيأتي .

اجل ! كان واجب « الفن » يحتم علينا ان نقف عندتلك المعارك وقتاً غير قصير ، ولكن الواجب الوطني يدعونا الى التجاوزعن ذكر كل مايسيء الى الوحدة الوطنية والعزة القومية ، وانه لمن غير المعقول ان نعمد الى نبش دفائن الماضي ، ونكأ الجراحات المزمنة المندملة كي نرضي الفضول في بعض النفوس ، بالوقت الذي تعمد فيه الامة ، الى مثل ماتعمد اليه الآن ، من اهمال لكل ما يسيء الى وحدة البلاد ،

ويؤذي ابناءها المخلصين .

وانني من ابغض الناس لكل مايسيء الى الوحدة الوطنية ، والفكرة القومية عن قصد ، اوغير قصد .

طلب الفرنسيين الصلح

وقد ادى انكسار الفرنسيين الهائل في وادي الاسماعيلية، ووادي ورور ، الى كارثة أليمة حطّمت من كبرياء الجيش الفرنسي الذي كان في ابّان نشوته بالظفر العسكري ، والنجح الحربي ، مما كان له ابعد الأثر في نفسية الجنود ـ الامر الذي اضطر القادة للتوسط في طلب الصلح مع الشيخ .

وقد اختاروا لهذه المهمة المرحوم احمد افندي الحامد الزعيم العلوي المعروف . وطلبوا إليه اقناع الشيخ ، وجلب شروطه المناسبة للدخول في المفاوضات .

وقد اوفد المرحوم احمد افندي يطلب من الشيخ موعداً سريعاً لمقابلته في موطن الثورة . فقبل الشيخ ؛ وحدد الموعد . وجاء الوسيط الكريم يصحبه ابن اخيه اسماعيل افندي الطاهر. وبعد المداولة؛ والبحث قَبل الشيخ الدخول بالمفاوضات مع الفرنسيين لعقد الهدنة ، واعلان الصلح ، على هذه الاسس الثلاثة .

١ الجلاء عن الساحل السوري ، والموافقة على ضمه الي حكومة الشام .

٢ إطلاق سراح الاسرى من الفريقين .

٣ دفع تعويضات عن الاضرار التى الحقها الجيش في القرى التي احرقها ، والتي مرّ بها .

وقبل القائد الفرنسي مبدئياً بهذه الشروط ، ثم ارسل من لدنه من يستأذن الشيخ للاجتماع به ، والتفاهم معه على هذه النقاط . وتسوية المسائل بينهم بالطرق المعروفة ، على أساس الشروط الثلاثة — الآنفة الذكر . وقبل الشيخ الاجتماع بالقائد تحت هذه الشروط ايضاً :

١ ان يكون الاجتماع في موقع الشيخ بدر .

٢ الا يصحب القائد الا ثلاثة رجال .

٣ ان يكون الجميع عزلاً من السلاح .

ووافقَ القائد ايضاً على الشروط الأخيرة وتعهد بتنفيذها .

وما ان سرت اشاعة الصلح ، وموافقة الفرنسيين على الجلاء . وتسليمهم بجميع الشروط التي طلبها الشيخ منهم ، حتى غمرت النفوس موجة البشر ، والغبطة والاطمئنان . واستسلم المجاهدون للفرح الزائد يعبون منه ، ويذوبون فيه .

لقد قَبل الفرنسيون بالجلاء ، ووحدة البلاد !! انها لأمنية حبيبة

الى قلب كل مؤمن بالله، والعروبة، ومبدأ الجهاد. وانه لحُلمٌ ماأحب تحقيقه الى النفوس، وأعزّه عليها، وهل ثمة ابهج من ذلك، واجمل واحلى؟

ومما زاد النفوس غبطة وانشراحاً ان ذلك سيتم بفضل الشيخ وجهاد الشيخ، وثبات الشيخ، وبدون عناء ينكرُ، او خسائر تذكر. وان مساعدة ما ومن أي الجهات كانت، لم تكن قد توفرت بعدُ للمجاهدين - حتى ان الرسل التي اوفدت الى دمشق، قد عادت بعد ان وُعدَتْ بدراسة الحال، ومراقبة الامور.

خيانة الفرنسيين أيضا

وبينما الشيخ، والمجاهدون، في غمرة الارتياح والابتهاج، وهم جميعاً بانتظار القائد الفرنسي، يحمل الموافقة على شروط الهدنة والجلاء اذ وردت الاخبار ان ثمة تجمعات جديدة في وادي الاسماعيليين - وكان العلويون قد اخلوه بعض اجلاء الفرنسيين - وان نقل الاسلحة والذخائر مستمر في الليل والنهار. وان توسيط القائد للصلح، وتسليمه بجميع الشروط، ان هو إلا عملية تخدير للمجاهدين، ترمي إلى اخذهم على حين غرة، وهم في حال الشعور بوجود السلم، وما يجره من تفكك وفوضى.

وهناك من يحسن الظن بذلك القائد ويقول انه ابرق الى وزارة

الحربية الفرنسية ، التي رفضت من جانبها ذلك ، وامرت باحتلال مناطق الثورة بقوة السلاح ، وبمعاملة الثائرين بمنتهى الشدة والعنف ، وامرت القائد ايضاً ان يحشد لهذه الغاية كل مايعوزه من جند وذخيرة.

وقد انحت باللائمة الشديدة على القيادة الفرنسية العامة في الشرق التي قبلت بفكرة المصالحة ، ورضيت بكامل شروطها القاسية، وأظهرت مثل هذا الضعف الحربي ، تجاه ثائرين لا يملكون من وسائل الثورة الا بعض البنادق المصادرة من رجال الجيش الفرنسي نفسه .

وما يهمنا ان نقرر هنا عن السبب الذي ادى بالفرنسيين الى النكوص ، أهو خيانة القائد نفسه ، ام تمنع وزارة الحربية الفرنسية عن القبول . أم لأن « مواطناً عربياً » قد حمله على الرفض، واظهر استغرابه من قبول القائد لشرائط رجل (!) لا يتبعه الا بضعة رجال !

أجل ليس المهم ، ان نقرر هنا شيئاً من هذه الحقيقة ، بل المهم ان نستمر في سرد الوقائع ، ومتابعة الحوادث .

احتلال قرية كاف الجاع

وبينما الشيخ ورجاله في غمرة من الأمل السادر بتحقيق احلامهم الوطنيه ، إذا بهم يفاجأون بالأخبار التي مر التحدث عنها ، من أن الفرنسيين عادوا للتمركز في وادي الاسماعيليين. وان كتائبهم المعسكرة

في « القدموس » قد هجمت على قرية « كاف الجاع » — التي يملكها الشيخ صالح — فاحتلتها بدون مقاومة ، لأنها كانت بعيدة عن مناطق الثورة الرئيسية ، ولأنها كانت بدون خفارة . فالشيخ لم يعبأ بصيانة املاكه الخاصة ، وإنما كان يعبأ بصيانة المواقع الستراتيجية التي يتوقف على صيانتها مستقبل الثورة . وذلك مثل في التضحية لا يعد له أي مثل .

وقد اعتقل الفرنسيون سكان القرية ، ثم اضرموا فيها النار ، وجعلوا بعض اجساد المعتقلين طعاماً لها . وحينئذ أدرك الشيخ أن لا بد من احتلال « القدموس » مهما كلفه ذلك من تضحيات ، وإلا عرّض ميمنة الثورة لأشد الأخطار . وأفسح المجال أمام الجيش الزاحف من الغرب والجنوب ، أن يعتمد على ضغط فصائله المعسكرة في الشمال حول القدموس . وتلك خطة يراد منها تطويق الثوار ، وتضييق الخناق عليهم . فبدأ من ذلك الوقت يستعد للهجوم على القدموس ، وتطهير ميمنة الثورة من رجال العدو .

مساعدة الملك فيصل

ولما كانت الثورة قد اتسع نطاقها ، وازدحم ميدانها ، فقد أرسل من جديد يطلب معونة الملك فيصل ، ومساعدته بالذخيرة والضباط ، وقد اختار لهذه المهمة السيد « أنيس أبو فرد » الذي اتصل شخصياً

بجلالة الملك ، وأطلعه على مقدرات الثورة ، واستعدادها وحاجياتها .

وقد أصغى جلالته إلى ذلك بكل انتباه واهتم لهذا الامر، وأولاه كثيراً من العناية ، فأرسل في غضون شهر تشرين الاول ١٩١٩ ابن عمه الشريف عبدالله مصحوباً ببعض الذخائر والاعتدة الحربية ، وكلفه بدراسة الحالة عن كثب ، والاشراف على كل ما يتعلق بالثورة ويتصل بها ، إشرافاً تاماً ، ليطلع بدقته المعروفة ، على جميع التفصيلات والنتائج.

وقد استقبل الشيخ ورجاله ، سيادة الشريف بما يستحقه من الحفاوة والاكرام . ثم زار المناطق التي حصل فيها الاصطدام بين الفرنسيين والمجاهدين . وكانت آثار الدماء ، وبقايا الاشلاء ، ومظاهر التخريب ، ما تزال ماثلة للعيان ، تشهد بعنف الثورة ، وكثرة جهودها ، ووفرة اضاحيها .

وعاد الشريف فاطلع ابن عمه العظيم على كل ما سمع ورأى .

ومن ذلك العهد بدأت الذخائر ترد باستمرار إلى الشيخ وهي لم تقتصر على السلاح فقط ، بل تعدته الى كل مطاليب الثائرين، وحاجاتهم فلم يغفل فيصل ، رحمه الله حتى عن ارسال القهوة ، والسكر، والملابس والذبائح . فضلاً عن الامدادات المتنوعة التي كانت ترد بكثرة هائلة قادمة عن طريق حماه . كما أن البُرُد بين الملك والشيخ كانت تجيء

وتذهب ، باستمرار وسرعة عجيبين . حتى أن الاتصال المباشر بين الثورة ودمشق ، كان ايسر من الاتصال بين مناطق الثورة بعضها ببعض .

الهجوم على طرطوس

في مطلع ربيع عام ١٩٢٠ كان الشيخ قد أكمل استعداده العسكري وفقاً لتوسع الثورة ، وتشعبها ، واتساع نطاقها ، وكانت قد وردت اليه الانباء بأن الفرنسيين يحشدون قوى هائلة في مدينة طرطوس الواقعة على البحر ، امام جزيرة ارواد . فقرر مهاجمتها ليفسد خطة الفرنسيين ويداهمهم قبل أن يداهموه . فهيأ لهذه الغاية كل وسائل الهجوم . وقسم المجاهدين ، الذين اصبح عددهم يربو على الآلاف ، إلى فرق متعددة ، كان يرأس بعضها ضباط نظاميون من الجيش السوري ، وبعضها الآخر ضباط محليون ، من مجاهدي الجبل ، وفي مقدمتهم الشيخ سليم صالح واسبر زغيبي ، وعزيز بربر ، وغيرهم من كبار العقداء .

وعند بزوغ فجر ٢٠ شباط ١٩٢٠ بدأ الهجوم على مدينة طرطوس من ثلاث جهات : الشمال ، والشرق ، والجنوب ، في تنظيم بديع ؛ وترتيب عجيب . فأفاق الجيش الفرنسي لهذه المفاجأة الحاسمة . ولم يشعر إلا وقد أحاط به الثائرون ، وهو محاصر في ثكناته العسكرية . ودارت بينه وبين بعض فرق المجاهدين حرب عنيفة بالسلاح الابيض . بينما كانت

فرق أخرى تقوم باحتلال السراي ، وبقية المنشآت الحكومية .

وفي تلك اللحظة التي كانوا يستولون فيها على الاسلحة والذخائر بعد أن حوصر الجيش في ثكناته، وأقفل على نفسه الابواب؛ إذ بالاسطول الفرنسي يقف في عرض البحر المحاذي لطرطوس، وتبدأ بوارجه الحربية بصب القنابل على مداخل طرطوس، وخارجها . والأماكن التي يحتلها الثوار . فلم يجد هؤلاء بداً من الانسحاب متكبدين بعض الخسائر في الأرواح . وقد أفسد الاسطول على الثوار خطتهم العسكرية الهائلة وهي منع الاتصال بين شمال المحافظة وجنوبها .

التهاب الثورة، وامتدادها

وبدأت المعارك بعد ئذ تزداد عنفاً واحتداماً . فلم يكن يخبو لهيبها هنا ، حتى يضطرم هناك . ولا تخمد جذوتها هناك ، حتى تشعل هنا . فهي أشبه ماتكون بنقطة الزيت ، التي تبدأ واحدة ، ثم تتوزع إلى عدة نقاط . وهكذا خرجت الثورة من نطاقها الضيق المحدود ؛ في بقعة ضيقة محدودة ، إلى مدى ارحب امكنةً وأوسع آفاقاً ، وأكثر ميادين . وبدأت القيادة الفرنسية تحشد القوى الميكانيكية ، وتؤلف منها جيشاً لجباً في الدفاع والهجوم . كما انها شرعت باستبدال فرقها العسكرية بعضها مع بعض ، معتمدة اكثر فاكثر على الجنود الذين

عاشوا في أماكن جبلية موعرة.. وهم بالطبع أقدر من سواهم على التسلق وأعرف من غيرهم بطبيعة الأرض ، في هذه الأماكن الوعرة الخطرة ولذلك فقد استقدمت بعض الفصائل الخاصة من افريقيا ، ومن الهند الصينية الفرنسية ، وفتحت باب التطوع أمام اللبنانيين . وحشدت من فرقها المختارة للقتال في جبال العلويين ، أشرس الجنود ، واقدرهم على الثبات ، والنضال . ثم بدأت توزع جنودها في كل نقطة محتلة من هذا الجبل ، وهذا الساحل . وتحشد أفواجاً كثيفة في مكان قليل الاهمية يحسبه الناظر لا يكفي لتعطيل جندي واحد فيه وكانت القيادة الفرنسية بهذا العمل انما ترمي إلى القيام بحركات عامة تتحكم فيها بمناطق الثورة تحكماً قوياً وتسد عليهم المنافذ والسبل ، وتضيق الخناق على انصارهم المخلصين . وقد جعلت مدينة القدموس نقطة ارتكاز هامة للجيوش ، ومناطق للعبث والتجسس والافلاق . فكان لابدّ والحالة هذه من قيام الشيخ بحركة واسعة ، تستهدف احتلال القدموس ، واقصاء العدو عن جبالها المنيعة ، وتحول بينه وبين مارسمه من خطط ، ويسعى اليه من اهداف .

احتلال القدموس

في ١٣ آذار ١٩٢٠ زحف الشيخ برجاله على « القدموس » مستفيداً من فرصة الذعر التي تركها بين صفوف الفرنسيين من جراء هجومه المفاجئ على « طرطوس » .

وكان الفرنسيون قد حولوا « القدموس » إلى قلعة حصينة منيعة ، وهي بحكم طبيعتها وعلو أرضها ، واحاطتها بالوديان السحيقة من ثلاث جهات ، أشبه ما تكون بالحصن القائم على جبل لا تصله بالارض المنبسطة إلا طريق واحدة قصيرة .

وكانت حامية القدموس مسلّحة تسلحاً كبيراً ، وأهلها مسلحون أيضاً ، بحيث لا تكاد تجد واحداً منهم خالياً من السلاح ، وبينهم وبين المجاهدين ، ذلك التنافر المؤلم ، الذي سبق التحدث عنه في مستهل هذا الكتاب ، وكان المجاهدون يربو عددهم على أربعة آلاف مقاتل ، مزودين بافتك السلاح ، وأنفس العتاد .

وكان من البديهي ، أن تمتنع الحامية عن التسليم ، يعاونها على ذلك الأهلون المتحمسون ، وينتظمون في صفوفها مقاومين مناضلين .

فحاصرها المجاهدون ، ومنعوا عنها الماء ، وقطعوا عنها وسائل الحياة ، ودام الحصار ثلاثة أيام ، اضطرت بعدها الحامية إلى التسليم ، بعد أن نفد ما عندها من الذخيرة والمياه . واضطر الاهلون إلى قبول شرائط الجلاء والنزوح .

وقد تم جلاء الاهلين إلى مصياف بدون أن يقع لهم حادث معكر ، او يحصل لهم عارض مسيء . وأرسل معهم الشيخ من يحميهم من الاعتداءات طوال الطريق وقد تجلت في هذا الحادث النبيل ، أخلاق الشيخ ، وطهر مزاياه . ولكن احتلال القدموس الذي دام وقتاً طويلاً لم يخل من حوادث النهب ، من قبل بعض المستغلين والمشاغبين ، ومما يدرك بالبداهة ، انه لا يعقل أن يكون الاشراف المباشر من قبل قيادة الثورة تام المفعول في مثل هذه الحالات . ولا يعقل أيضاً أن يخلو مثل هذا العدد الضخم ، من الصائدين بالماء العكر ، ومن الاستغلاليين ، الذين لا يعرفون الرحمة ، ولا يفهمون معنى الاشفاق . ولكن الشيخ قد حال دون تنفيذ غايات المتآمرين ، والمستغلين ، فأمر برد المنهوبات الى أربابها ، ومن ذلك إرجاعه للامير تامر جميع ما سلب منه وارساله بعد تزويده بالمال اللازم مخفوراً إلى مصياف كيلا يقع عليه اعتداء في الطريق .

على أنني أعود فأكرر هنا ، عبارات الأسف ، لما حدث بين العلويين ، والاسماعيليين ، مما كان مردّه إلى مقاصد الاجنبي الدخيل .

فقد أمعن الاسماعيليون ، بالكيد للعلويين ، وبالتطوع في الجيش الأجنبي ، ضد أخوانهم المجاهدين ، وفي تشكيل طلائعه المتقدمة، لأنهم أعرف بطبيعة الأرض ، وأحوال الطرقات ، وفي التجسس العنيف ضمن مناطق الثورة ، والاغتيالات الكثيرة التي لم تقف عند حد ، كما ان المجاهدين ، قد أمعنوا بالكيد للاسماعيليين ، فلم يتركوا وسيلة من وسائل النيل والانتقام إلاّ لجأوا اليها . وانها لحقائق محزنة هذه التي أرويها . ولكنها على كل حال ، حقائق يشهد بها (الشيخ عبد الله مرتضى ، الاسماعيلي ، مؤلف كتاب الفلك الدوار) الذي أمعن ، في النكاية ، والدسّ ، والتهويش ، والمغالطات ، والافتراءات فذر الملح في الجرح ، ولم يهيء له البلسم الصافي ، كما أحاول — انا — الآن .

على أن الذي بين العلويين واخوانهم الاسماعيليين ، ان هو إلا سحابة صيف ، لم تلبث أن توارت ، من أفق حياتهم الضيقــــة في جبلهم المحدود .

ولنعد الى موضوع احتلال القدموس لنلفت انظار القارئ الكريم ، انه قد حمى ميمنة الثورة ، وكفل للثائرين « فضلاً عن ذلك » الاشراف المباشر على « بانياس و قلعة المرقب » وسهل عليهم أمر احتلالها كما سيجيء ، كما انه كان ذا تأثير معنوي ، ومفعول سياسي وعسكري كبير وكانت له ضجة كبري ، في أنحاء الجبل من اقصاه إلى أقصاه .

التحاق الشعلان بالثورة

وفي ١٥ آذار ١٩٢٠ أرسل جلالة الملك فيصل، القائد الشهير غالب بك الشعلان لمعونة الشيخ صالح العلي! في قيادة الثورة، وتوجيهها معه وجهة فنية صائبة، وقد اتخذ الشعلان لقيادته مركزاً مستقراً، في قرية (الرستن) الكائنة إلى الجهة الشرقية الشمالية، من الشيخ بدر — والتي لاتبعد عنه أكثر من كيلو مترين، وبقي إلى جانب الشيخ يعينه بحصافته وحماسته، حتى انتهاء الثورة في الجنوب، وكانا يشتركان معاً. في ترتيب الخطط، وتدبير الأمور، والتشاور في كل ماله علاقة بالثورة والثائرين. وكان برأس اركان حرب الشيخ، وله مقام مرموق بين اوساط المجاهدين. وكان يلي الشيخ مباشرة، في الأمر، والنهى، والقيادة والتوجيه، والمجاهدون الأحياء لا يزالون يذكرونه في كثير من التقدير والاطراء، ويعجبون من بطولته الفائقة، ورجولته الخارقة ومن أخلاقه الدمثة، وطباعه السلسلة.

وكان السيد احمد جمعة المجاهد الحموي المعروف رسوله في المخابرات الرسمية والخصوصية يتوفر على القيام بها بما عرف عن ابناء حماه من

حرص ، وأمانة واخلاص ، ولم يترك مكانه في الثورة ، منذ أن التحق بها . هو والسيد فارس ابو كف ، حتى رجع الشعلان بعد تقويض العرش الفيصلي ، في دمشق كما سيجيء ذكره .

على انه من الوفاء للتاريخ أن نطري وطنية السيدين « أبي كف » و « جمعة » ونثني على جهودهما الجبارة ، في سبيل الثورة ، ومبدئها، وغايتها.

وكان من ابرز الضباط المرافقين للقائد الشعلان ، السيد مصطفى الملي ، الذي ابلى في المعارك التي خاضها ، خير بلاء . كما انه كان للسيد عثمان التميمي مواقف مشهودة مخلصة .

الفوج الملي

وفي ربيع عام ١٩٢٠ شكل المرحوم عزيز هارون (الفوج الملي) في مدينة حماه .

وقد اطلق عليه اسم (الفوج الملي) ، لأنه فتح المجال للانخراط فيه من جميع الطوائف والجهات . وقد تطوع فيه ، مجاهدون من حماة ؛ وطرطوس ، وجبله ، وبانياس ، والحفة ، واللاذقية ، وغيرها وغيرها.

وكان عدد افراد (الفوج الملي) خمسمائة ، منهم مائة وخمسون فدائيون.

وقد أرسل جلالة الملك فيصل ، السيد جميل ماميش ، الضابط

في الجيش الفيصلي، ليقود كتيبة الفدائيين، في ذلك [الفوج]. وهي الفرقة التي كان يناط بها أمرُ حماية الثغور، وطرق المواصلات، وجلب المعلومات باستمرار عن جيوش الاعداء.

وقد اتخذ المرحوم « عزيز هارون » مقرَّهُ الرسمي، في مدينة « مصياف » قبل ان تلحق هذه بالجبل العلوي، بعد سقوط الشام. واما الكتيبة الفدائية، فانها كانت توزع هنا وهناك، تبعاً للمهام التي تعهد اليها من قبل قيادة الثورة.

وكان رئيس هذه الكتيبة، السيد جميل ماميش، الملازم الدائم للشيخ، والمرافق له في جميع الحروب والمعارك، مع السيدين، احمد المحمود، ومصطفى المحمود. والذي كان منوطاً به الى جانب مهامه العسكرية الأخرى، أمر ارسال التقارير عن الثورة الى جلالة المليك وكان السيد محمود الموسى من ابرز رجال هذا « الفوج ».

وبقي الفوج الملي، الى نهاية معارك الثورة في الجنوب. (أي جهة الشيخ بدر) يقوم بواجباته الوطنية خير قيام، ويؤديها احسن اداء.

تشكيل محكمة الثورة

ولما كانت الثورة قد امتد نطاقها ، واتسعت آفاقها ، وكانت بطبيعة الحال ، هدفاً للدسائس والتجسس والمؤامرات ، فقد رأى الشيخ بصائب رأيه ، وثاقب بصره ، أن يعمد الى تشكيل محكمة عرفية عسكرية ، تعاقب كل مجترئ على خيانة الثورة ، او متآمر على سلامتها وتقوم بتحقيقات دقيقة واسعة في كل ماله علاقة بالكيد لها ، او التجسس عليها . ورؤي أيضاً ان تكون احكامها مبرمةً ، لاتقبل الحل ولا الاعتراض ، وقد اختار لرئاسة هذه المحكمة وعضويتها السادة علي زاهر ، (حمام واصل) رئيساً . محمود علي اسماعيل (الحطانية) عضوا محمود ضوا (العصيبة) عضواً . ثم نيط بالمرحوم علي زاهر ، الاشراف الاداري على الخلافات التي تنشأ في منطقة الثورة ، بين الاهلين والتى لاصبغة عسكرية لها . فعين ايضاً [قائمقام للمنطقة الادارية] كما عهد لرفيقه ، علاوة على وظيفتيهما العسكريتين ، بمهمتين احداهما مالية ، والثانية تفتيشية .

وظلت هذه المحكمة ، تتابع أعمالها ، بكل حزم ونشاط ، ضمن

النطاق المسموح لها من الشيخ حتى اعتقل الفرنسيون رجالها، ثم أعدموهم، في قرية (القمصية) كماسيجي، ونكلوا بكنابهم ومساعديهم تنكيلاً شديداً. ثم مثلوا بالشهداء الثلاثة بعد الاعدام؛ وأبقوهم معلقين على أعواد المشانق ثلاثة ايام! وهي وحشية، ليست بغريبة عن النفسية الفرنسية، والخلق الفرنسي.

معارك [السودة] الكبرى

تقع (السودة) في الشمال الشرقي لطرطوس على بعد ١٥ كيلومتراً تقريباً

كان الفرنسيون في آخر ربيع ١٩٢٠ قد اتموا استعدادهم الهائل للهجوم على معاقل المجاهدين في « الشيخ بدر ». فحشدوا فرقتين كاملتين في [السودة] وعززوهما بالدبابات والطائرات والمدفعية الثقيلة، على طول عشرين كيلومتراً أو تزيد. ولما علم الشيخ بذلك قرر ان يفسد عليهم خطتهم الهجومية. فبدأ بالتأهب للهجوم، وحشد له خيرة الرجال. ووضع على رأسهم خيرة القادة، فعين الشيخ سليم صالح، على الميمنة، والسيد جميل ماميش في جبهة الوسط، وقسم الميسرة بين عدة عقداء، وكان يشرف بنفسه على سير المعارك عن كثب. وبعد أن نسق الشيخ

الهجوم ، واختار له الظرف الملائم طبيعة وفناً ؛ أمر الجيش بالتقدم ، فانطلقت كتائبه القوية ، من قرية [بعرزائيل] الكائنة إلى الجهة الشرقية الشمالية من السودة .

وهنا دارت رحى معركة عنيفة، استرخصت فيها الارواح والنفوس وكان طغيان هذه المعركة وحماس المجاهدين بالهجوم، دافعاً قوياً لجلب الفرنسيين نجدات سريعة، من جيوش الاحتياط في الساحل . وقد تقرر أمر هذه الحملة بسرعة لم تكن منتظرة ، فان ميسرة المجاهدين ، تلكأت عن الهجوم ، فنتج عن ذلك أن ضعفت تلك الجبهة ؛ مما أدّى إلى تقدم الفرنسيين ، عن طريقها ، يعاونهم في ذلك الاسماعيليون . وكانوا يرمون إلى قيام حركة التفاف واسعة معتمدين على ميسرة الجيش الفرنسي ، التي كانت تتألف من [علي بدور] ورجاله، وكتيبة من المغاربة تعضدها مدفعية قوية ؛ من عيار ٦٥ . واضطرت ميسرة المجاهدين للانكفاء . كما ان الضغط القوي على ميمنتهم ، قضى على الشيخ ان يأمر عقيدها بالتراجع . وظل الوسط بمثابة نتوء طويل بين جيوش الاعداء . فأمره الشيخ بالتراجع أيضاً ، حذراً عليهم من تنفيذ عملية التطويق . وقد استبسل العقيدان جميلماميش ، وسليم صالح ، استبسالاً عظيماً ، في هذه المعركة الكبرى .

وهكذا انتهت تلك الحملة التي كان يأمل الشيخ من ورائها ان تتبدل

الحل العسكرية تبدلاً ملموساً. وأن تفضي إلى حركة انسحاب واسعة من الفرنسيين . ولكن تلكؤ الميسرة المشبوه ، وشدة ضغط العدو ، أثرا كثيراً على نتيجة هذه المعركة ، فعكسا حالها ، وبدلا مآلها . على أن بعض الفائدة المرجوة من هذه المعركة ، قد حصل عليه المجاهدون إذ انهم استطاعوا بهجومهم المدائم، أن يفسدوا على الفرنسيين خططهم، وان يكفكفوا من حدة هجومهم، ويقفوا تأثيره عند حد، كما سيجيء.

على أنه بعد انتهاء المعركة ، عمد الفرنسيون إلى احراق قرية (زمرين) المجاهدة التي تبعد كيلومترين عن السودة من جهة الشمال. والتي كانت تشكل طابوراً خامساً للمجاهدين على الفرنسيين ، فيرسل أبناؤها الابرار للشيخ أخبار الحملات بالتفصيل، مزودين الثورة باصدق المعلومات، وقد استهدفوا في سبيل ذلك إلى التشريد والتعذيب، وتعرضت قريتهم الجميلة إلى التهديم والتخريب . وقد رأيت بأم العين في السنة الماضية بقايا قنابل الاسطول في بيت السيد [مصطفى عدره] محتفظاً بها كدليل صارخ على وحشية الفرنسيين ، وهمجيتهم ، وانحطاطهم . .

هجوم الفرنسيين المعاكس

اغتنم الفرنسيون ، فرصة النجاح الذي احرزوه ، برد الثائرين ، واحباط هجومهم ، فبادروا من جانبهم إلى القيام بهجوم صاعق ، على معاقل الثوار .

وفي صباح ٣ نيسان ١٩٢٠ بدأت طلائع الفرنسيين تدفق من أعلى الجبال ، وتصعد من سحيق الوديان ، وهي مخفورة بالطائرات والدبابات وجميع وسائل الدفاع والهجوم .

وكان الشيخ قد حسب حساباً لهذا الهجوم المعاكس ، فأبقى المجاهدين في اماكنهم الحصينة ، بعد فشل هجومهم . ولم يسمح لهم أن يغادروها . وكان الفشل الذي مُنيَ به المجاهدون سبباً قوياً لاستبسالهم واستشهادهم ، وأخذ الثأر من العدو ، الذي نكّل باسراهم أبشع تنكيل ، ومثّل بقتلاهم أفظع تمثيل. وهنا دارت رحى معركة عنيفة طاحنة ، استعمل فيها الفريقان اقسى ما يمكن أن يستعمله محارب من ضروب العنف ، والشدة ، والضراوة. وكانت هذه المعركة تشبه

الحرب النظاميـة من حيث الكر والفر ، والدفاع والهجوم، والشدة والعنف. واستبسل فيها المجاهدون استبسالاً عظيماً ، فكانوا يهجمون على مراكز الجيش بجرأة غريبة ، حيَّرت عقول القادة وأدهشتهم . وقد تمكن الفرنسيون من احتلال قرى « رأس الكتان » و « ضهر مطر » و « المنازة » و « العجمة » و « الحنفية » و « الشيخ علي طرزو » وغيرها وغيرها وهي القرى ، التي ينتظم اكثر ابنائها في صفوف المجاهدين. وكان ذلك مدعاة لايقاع الاضرار بهذه القرى من قبل الجيش الغاصب المحتل ، فأحرقها عن بكرة ابيها، حتى تركها وهي اشبه بالرماد.

وكان لهذه الوحشية ردّ فعل عنيف ، في صفوف المجاهدين فهجموا على الاعداء هجوماً مستميتاً ، وضربوا حوله نطاقاً من ثلاث جهات ، فتمكنوا بعد جهد عنيف من انتزاع هذه القرى جميعها، وارجاع العدو إلى الثكنات التي انطلق منها. ولولا الاسطول الذي كان يحمي مؤخرة الفرنسيين، لتيسر للمجاهدين حصار أعدائهم، ولشهد الفرنسيون كارثة ، أشد عنفاً من أية كارثة رأوها . وقد دامت هذه المعركة خمسة وثلاثين يوماً بدون انقطاع ، سقط خلالها قتلى وجرحى كثيرون .

وهكذا فشل هجوم الفرنسيين المماكس، كما فشل من قبله هجوم المجاهدين على « السودة » .

على انه في غضون معارك « السودة » ، زحفت كتائب فرنسية

من الجهة الجنوبية الشرقية ، جهة صافيتا . الى جبلي (بستان) و (ريشه) الكائنين في مؤخرة الثائرين ، حيث احتلتهما بدون عناء . واستطاعت أن تفتك ببعض جنود المؤخرة من المجاهدين .

ولما علم المجاهدون بذلك ، استشاطوا غيظاً ، فارتد بعضهم من صميم المعركة الى الوراء لاخراج الجيش الفرنسي ، من الجبلين ، تحامياً من وقوع الثائرين بين نارين ، ولكن مناعة الجبلين حالت دون تنفيذ الثائرين غايتهم ، والوصول إلى هدفهم . فبقيت تلك الكتائب محاصرة ، حتى نهاية معارك [السوده] حيث انسحبت تحت جنح الظلام ، بعد أن فشلت خطتها ، وتكبدت خسائر فادحة . ولكنها استطاعت ان توقع بعض الضحايا من المجاهدين .

وفي ٢٥ ايار ١٩٢٠ عادت بعض كتائب الفرنسيين إلى الهجوم واستطاعت احتلال قرية (كوكب) الكائنة على بعد عشر كيلو مترات من السوده ، واحراقها . فكرّ المجاهدون واسترجعوا القرية المذكورة منهم ، ثم هجم المجاهدون بدورهم على (قلعة الخوابي) فاسترجعوها من الفرنسيين ، وهي أطلال . واستولوا على الذخيرة ، التي كانت نقلت حديثاً اليها .

وفي ٤ حزيران ١٩٢٠ تقدمت بعض الفصائل الفرنسيه ، عن

طريق نهر الاسماعيلية ، فتصدى لها المجاهدون ، وارغموها على الارتداد ولم تقع في هاتين الحادثتين ضحايا تذكر .

اجتماع الشيخ مع يوسف بك العظمة

في غضون هذه المعارك المتواصلة المستمرة، وجه المرحوم يوسف بك العظمة ، وزير الحربية السورية، دعوة الى الشيخ صالح العلي للاجتماع به في المكان الذي يختاره وينتقيه . ولما كان الشيخ غير مستطيع ان يبتعد كثيراً عن ساحة القتال ، فقد اختار قرية (السويده) الواقعة بالقرب من مصياف مكاناً لهذا الاجتماع . وهناك في تلك القرية الهادئة الوادعة ، اجتمع الرجلان الكبيران ، وكلاهما يمثل رجولة القواد ، وعنف الجهاد .

وتعانقا وشعر كلٌ منهما انه ينطق بلغة الآخر ، ويتحدث بلسانه ويعيش بقلبه . فقلبا الأمر من جميع وجوهه . فوجدا أن المعركة الدائرة ، هي في صالح الامة ، وعليها يتوقف مستقبل البلاد . وتعاهدا من جديد ، وأقسم كل منهما يمين الولاء والوفاء ، واستشهد يوسف العظيم ، وما يزال في نفس الشيخ أثر بالغ من ذكراه ، تحدثه عن رمز

الجهاد والاستشهاد، فيسبق الدمع لسانه، وترتسم الكآبة في وجهه النبيل.

لقد رآه مرّة واحدة في العمر، فكأنه عاشره حقبة طويلة من الدهر. ففي نفس الشيخ، ثورة عاصفة من اللوعة الدامية، على فقد الشهيد الكبير. وفي نفسه الطافحة بالحزن، والفياضة بالاسى. جرح يتنزى ألماً على ذكرى خالدة لشهيد العرب العظيم. وهي ذكرى أبدية، يعززها الشعور الصادق؛ الذي لايزول، وهيهات ان يزول.

رحم الله يوسف العظمة، لقد كان في حياته رمز الجهاد، ولا يزال بعد مماته، رمز الجهاد والاستشهاد، ورحم الله امير الشعراء؛ شوقي:

انت كالحق ألّف الناس يقظا ... ن وزاد ائتـــلافهم وهو نُوّمْ

توسط الفرنسيين للصلح

في ١٢ حزيران سنة ١٩٢١ طلب الفرنسيون الصلح، وتوسطوا لذلك كلاً من السادة الشيخ محمد عبد الرحمن، شيخ العلويين كافة في ذلك الحين، و: انيس افندي العمر؛ رئيس الشماسنة وولده الـثريّ المعروف، محمد افندي الانيس و: الشيخ محمد رمضان، وتوفيق افندي اليونس.

وتعهد الفرنسيون للوسطاء الكرام، بتنفيذ مطالب الشيخ المعقولة — على حد قولهم — بدون قيد ولا شرط .

وجاء الشيخ محمد عبد الرحمن ، وصحبه الأفاضل ، تحدوهم تلك الرغبة النبيلة ، بانهاء تلك المجازر الدموية الهائلة ، بعد ايصال الأمة إلى حقوقها القومية ، كاملة غير منقوصة . وبذلوا لهذه الغاية كل ما يملكون من جهد واقناع . ولكن الشيخ صالح العلي، وقد خبر لؤم الفرنسيين ، وغشهم وخيانتهم . امتنع واصر على الامتناع ، وأدرك أنها مكيدة جديدة ، يرمي الفرنسيون من ورائها الى التخدير ، وتغطية عمل مفاجيء مريع .

وقد حفزت هذه الوساطة الشيخ لأخذ الحيطة اللازمة، والأهبة الواجبة ، لمقابلة كل حركة مفاجئة ، واعتذر عن رفضه وساطة الوسطاء النبلاء . واطال الوفد الكريم مكوثه ، وهو يحاول اقناع المجاهد الكبير بوجهة نظره الخالصة لوجه الله والوطن .

وفى تلك الأثناء ، وفي إبان إقامة الوسطاء في معقل كبير المجاهدين ، وردت الانباء أن العدو قد بدأ بالهجوم ، عن طريق قرية (كوكب) فغضب الشيخ محمد عبد الرحمن وصحبه الكرام ، لهذه الخيانة المقصودة ، والمؤامرة المدبرة . وهم يرون ألسنة اللهيب ، تندلع من قرية « كوكب » التي احرقها الفرنسيون مرة أخري، وانسحبوا

منها مسرعين ، وقد توفي الشيخ محمد عبد الرحمن ، بعد وصوله إلى مقره بايام رحمه الله .

وتمكن الثائرون من صد المهاجمين ، بدون عناء ، وعرفوا بعدئذ ان هجومهم ما كان إلا لجس النبض قبل البدء بالهجوم الكبير .

احتلال قلعة المرقب

بعد هذه الانكسارات المتوالية ، حول الفرنسيون نظرهم ، من من الجبل إلى الساحل . وهم ينوون الهجوم على الجبل من جبهة واسعة تمتد من « بانياس » حتى « طرطوس » يحشدون فيها كل مالديهم من احتياط ، من الرجال والسلاح . وقد عرف الشيخ نياتهم ، فارسل قوة كبيرة احتلت « قلعة المرقب » الكائنة على البحر جنوبي « بانياس » وكان الهجوم عليها واحتلالها ،مفاجأة مدهشة للافرنسيين ، اذلم يكونوا يحسبون هذا الحسبان ، ولذلك فانهم لم يتركوا في القلعة إلا حامية صغيرة . وبقيت قلعة المرقب في ايدي الثائرين حتى نهاية الثورة وكان لاحتلالها اثر بليغ في تكييف الثورة ، وتوجيهها . اذ انه قطع الاتصال المباشر ، بين الفرنسيين في اللاذقية والمرابطين في « طرطوس » .

هجوم القائد (بولنجي) الكبير

ادرك الفرنسيون بعد تلك المعارك الهائلة ، انهم امام قوة جبارة رهيبة ، وان الاستخفاف بهذه الثورة اول الامر ، قد جرهم الى هذه الخسائر الفادحة ، في الاموال والارواح . وادى بهم الى ان تنكب سمعتهم في الشرق والغرب . وبدأت الصحف الاجنبية تسخر من الجيش الفرنسي الدعي ، وتتحدث عن عجزه الفاضح ، عن اخماد لهيب ثورة محدودة (كذا) في جبال العلويين .

فعينت وزارة الحربية الفرنسية ، القائد « بولونجي » قائداً عاماً لقوات الجيش الفرنسي ، ضد الثائرين العلويين . واطلقت يده في استعمال كل الاساليب التى تمكنه من قمع الثورة ، واخضاع الثائرين مهما بلغ الثمن ، ومهما كانت الخسائر . ووضعت تحت تصرفه كل القوى الفرنسية في هذه البلاد ، وفوضت اليه ان يستجلب من الخارج مايختاره من الفرق ويريد .

واستعد القائد لهذا الهجوم استعداداً هائلاً مخيفاً ، واكثر من الدبابات والمصفحات والطائرات ، وحشد في هذه الحملة ما ينوف

على الثلاثين الفاً من الجنود .

بدأ الهجوم بين قريتي « خربة الريح » و « نهر الصوراني » ثم اتسعت رقعته ، حتى اصبحت تشمل عشرات الكيلو مترات . ولما كانت هذه الحملة مزودة بقوى ميكانيكية هائلة ، ومنسقة خير تنسيق ، وقد استعدّ لها العدو من قبل استعداداً كبيراً ، فقد اضطر المجاهدون الى الانكفاء أمامها بانتظام ، وتركوا وراءهم كتائب تشاغل الأعداء وتعوق سيرهم التقدمي الى الأمام . وانسحبت افواج المجاهدين الرئيسية بقيادة رئيسهم البطل الشيخ صالح العلي ، وتفرق الجميع حول الجبال المحيطة بقرية « وادي العيون » . وهناك بدأوا ينتظرون مقدم الحملة الهائلة ، بعد ان افسحوا لها المجال للتقدم الوئيد .

كما ان المجاهدين بدأوا يستفزون الاهلين ، ويستحثونهم على المقاومة والدفاع . وقد جاءتهم نجدة هائلة من قرية (عين الشمس) و (عين الذهب) و (المعمورة) وبعض الجوار .

واستمرت الحملة في تقدمها ، وهي تحرق كل ماتراه في طريقها من وسائل العمران . ولا تبقي أثراً للحياة . وقد احرقت بيوت الشيخ للمرة الثانية ، وكانت بيوت الشيخ كلما أحرقت مرة ، يعيد المجاهدون بناءها بسرعة فائقة ، لانها كانت مستودع مؤونتهم وسلاحهم ولأنها مركز قيادة الثورة — وقد استخف الطربُ الحملةَ — قادتها وجنودها —

فاستمروا بالحاق المجاهدين المتكاثرين، الأمر الذي أدى بهم الى التوهن وعدم الانتظام ، حتى اصبحت تقاتل آخر الأمر بدون اتزان ، وبدون خطة اساسية مرسومة . وكان لابد لهم من أن يلجوا ودياناً سحيقة عميقة الغور ، وهم في زحفهم المتواصل الى الامام .

وهناك — في نواحي (وادي العيون) القرية الكبيرة الواقعة على بعد عشر كيلو مترات شرقي الشيخ بدر ، والتي تشرف من أعلى عدّة هضاب ، وعلى واديها الجميل السحيق — بدأت أهم مجزرة عرفتها تلك الثورة الضروس ، حتى ذلك التاريخ . فقد اطبق المجاهدون على الحملة ، من جميع جوانبها وجهاتها ، اطباقاً شديد الوطأة ، قويّ التأثير فاوقعوا بين رجالها الذعر ، ولم يكن لها منفذ الا من جهة الشمال . فاتجهت ناحية (القدموس) والثوار يلاحقونها ، وهم يهبطون من جبل ويصعدون الى جبل . ولما اقتربت الحملة من القدموس ، وجدت الطريق مسدودة في وجهها . فتحولت عنها إلى قلعة القدموس ، والثوار يستمرون في متابعة زحفهم ، واللحاق بها ، وسد الطرق في وجوهها الى (نهر الملتقى) . ومنها الى (القمصية) حيث استطاعت من هناك العودة الى الساحل بعد ان تكبدت خسائر لاعدّ لها ولا حصر ، وأسقطت في هذه المعركة طائرتان . وهذه الواقعة تعد اعنف معارك الثورة ، وأشدها اتساعاً ، واكثرها شمولاً ، واوفرها خسائر . وكانت

في مراحلها الاخيرة ، بعد ان تفككت وحدة الفرنسيين ، وأصبحت اشبه بحرب عصابات ، منها بحرب نظامية . الأمر الذي أدى الى قتناص كثير من الجنود ، وأخذهم أسرى .

واستشهد في هذه المعركة الهائلة كثير من المجاهدين ، وعلى رأسهم المرحوم (عزيز البربر) بعد ان استولى على ثلاثة مترليوزات وكان هذا البطل الشهيد ، من أشجع رجال الثورة . ومن أكثرهم بطولة ، وأعظمهم اقداماً . ولم يخل استشهاده من مؤامرة دنيئة مدبرة وقد شيع الشيخ جنازته . في محفل كبير ، ووسط عاصفة من الألم الزاخر . اطبقت جوانبه على سائر تلك الجهات .

وقد أدت هذه الموقعة الكبرى ، وفشل الفرنسيون فيها فشلاً ذريعاً ، إلى عزل القائد (بولونجي) والذي أدى عن إقصائه عن الجيش وراجت حينئذ الشوائع انه قد احيل إلى المحكمة العسكرية .

توسط الانكليز

بعد الاندحار المشين ، الذي مُنيَ به القائد (بولونجي) والذي أدّى إلى اقصائه من منصبه في الجيش ، وعلى أثر الخسارة الفادحة التي تكبدها العدو في تلك المعركة الهائلة ، طلبت الوزارة الفرنسية رسمياً ، توسط

الانكليز ، لانهاء هذا النزاع ، وإيجاد صلح يكفل لقواتهم بعض الامن والاستقرار. وعلى أثر ذلك، وجه (الجنرال اللمبي) كتاباً خاصاً إلى الشيخ صالح ، يطلب منه الاجتماع بمندوبيه في طرطوس . فرفض الشيخ هذا الطلب . ثم رأى بصائب رأيه أن لا يعمد إلى مخاصمة الانكليز ، فقرر القبول على أن يكون الاجتماع ، في (الشيخ بدر) عاصمة الثورة ومعقل المجاهدين .

وجاء جنرال انكليزي ، وآخر فرنسي ؛ ومعهما بعض الضباط من الطرفين، فرفض الشيخ المفاوضة إلا بحضور جميع الأسرى من المجاهدين وتمنع الفرنسيون أول الامر ، ولكنهم رضخوا بعد ذلك ، وأحضروا الاسرى إلى مكان الاجتماع .

موقف بعض الزعماء

وقد حرص الفرنسيون على أن يحضر هذا الاجتماع، الزعماء الموالون لسياستهم ، والواقفون من الثورة موقف التثبيط والعداء . وقد رأى الشيخ في هذا الطلب بادرة سيئة ، وقصداً مغرضاً يراد به الهيمنة على المجاهدين والضغط على إرادة المفاوضين. وبعد أخذ ورد، وجدال طويل قبل بوجهة النظر الانكليزية ، وهي أن يشهد الزعماء جلسة الاتفاق على

أن لا يسمح لهم بشيء من الاعتراض او إبداء الرأي . وحضر هؤلاء الزعماء، وعقدوا فيما بينهم مؤتمراً خاصاً ، أول الامر ، اتفقوا فيه ، على مقاومة الشيخ، وعلى الاتصال المباشر بالمجاهدين. وتولى رئيس كل عشيرة امر الاتصال بابناء عشيرته ، وسحبهم من بين الثائرين . ثم رأوا ان يقف أحدهم، فيبلغ المجاهدين جميعاً هذا القرار، على مسمع من رجال المفاوضات وفي ساعة من ساعات ذلك النهار ، والمكان يغص بالوف المجاهدين ، وقف أحد هؤلاء الزعماء ، فخطب فيهم منذراً باعمال الشيخ ، ومهاجماً فكرة الثورة ، ومنحياً باللائمة على كل من يندمج في صفوفها، ويندغم في أتونها. ثم أعلن براءته وبراءة رفاقه من كل علوي يخاصم الفرنسيين.

وماسمع الشيخ هذا الكلام، يلقيه على مسمعه ، أحد الزعماء العلويين البارزين ، حتى استشاط غيظاً ، ووضع يده على زناد بندقيته . ولكن ما لبث أن عادت إليه حكمته وحلمه، فوقف بقامته المنتصبة، وأهاب بالمجاهدين أن يتبعوه ، وانسحب إلى مركز القيادة، في [الرستن] . ثم انذر اولئك الزعماء بمغادرة مناطق الثورة، خلال ساعة واحدة ، والا كانوا غير أمناء على حياتهم . وغادر الشيخ المكان فتبعه المجاهدون ؛ ورصاصهم يلعلع في الفضاء ، ويشق عنان السماء .

وتطلع الانكليز والافرنسيون يمنة ويسرة ، فلم يجدوا حولهم أحداً إلا اولئك الذين شرى الاجنبي ضمائرهم، وسيرهم في الطريق الاستعمارية

التي رسمها لهم. على أن هؤلاء انفسهم لم يستطيعوا البقاء بعد انذار الشيخ إلا لحظات رجعوا بعدها مسرعين.

المفاوضون في مركز القيادة

وأرسل الجنرال الانكليزي، بعض ضباطه يطلبون من الشيخ الرجوع عن قراره، والاجتماع معهم لاتمام المفاوضات، فرفض الشيخ ذلك، رفضاً باتاً، وعلى الأثر طلب اليه الجنرال الانكليزي، أن يسمح له بزيارته في مركز القيادة، وألحف في الطلب. فقبل الشيخ بذلك، واستقبل الجنرال الانكليزي، في مقر قيادته «بالرستن». وعرض عليه الجنرال الانكليزي، أمر استئناف المفاوضات، ووعده بان الحكومة الانكليزية ستعمل كل مافي وسعها لاجابة مطالب الثائرين، وتحقيق آمالهم في الوحدة والاستقلال.

وقبل الشيخ الدخول في المفاوضات على أساس هذين الشرطين:

(١) إعادة جميع المنهوبات إلى أصحابها.

(٢) تسليم الضباط والجنود الفرنسيين الذين ارتكبوا فظائع منكرة لتحاكمهم محكمة الثورة.

وقفل القائد الانكليزي راجعاً إلى (الشيخ بدر) وفي حقيبته هذان الشرطان الاساسيان. وفي صباح اليوم الثاني، جاءه الرد من الجانب البريطاني أن الفرنسيين قد وافقوا على الشرط الأول، وأرجأوا الموافقة على الشرط الثاني، ريثما يأتيهم الجواب من القيادة العليا. ومع هذا الجواب تعهُد من الجانب البريطاني. ان الجنود والضباط الفرنسيين الذين اقترفوا جرائم منكرة ضد الاهلين والاسرى، إذا لم توافق القيادة الفرنسية على تسليمهم إلى الشيخ - وهذا هو المنتظر بداهة - فان القيادة الانكليزية ستسعى لدى قيادة الجيش الفرنسي بمحاكمة هؤلاء المعتدين، في محاكمهم العسكرية الخاصة، وتحت إشراف ممثل عن القيادة الانكليزية العليا في الشرق فاستؤنفت المفاوضات، وأصر الشيخ على مطالبه الثلاثة الاولى لا يحيد عنها قيد شعرة وبعد جدال عنيف وأخذ ورد، وافق الفرنسيون على تلك المطالب الثلاثة وهي :

(١) الجلاء عن الساحل السوري، والموافقة على ضمه إلى حكومة الشام

(٢) إطلاق سراح الاسرى من الطرفين - وكان بعض الاسرى قد نفوا إلى خارج البلاد السورية - .

(٣) دفع تعويضات عن الاضرار التي ألحقها الجيش الفرنسي في القرى التي أحرقها، والتي أضر بها .

ووافق الفرنسيون مبدئياً على هذه الشروط، وتعهدوا بتنفيذها،

بعد أن تأتيهم الموافقة عليها، من قيادتهم العليا. وعلى أثر ذلك أعلنت الهدنة بين الطرفين.

اعلان الهدنة

وعلى أثر موافقة الفرنسيين على مطالب الشيخ، اعلنت الهدنة، وكان لاعلانها ضجة كبرى في سائر انحاء الجبل، لما تحمله من بشائر الفوز، والظفر بالاماني القومية المرجوة وتفرق المجاهدون، هائين مستبشرين وأقيمت معالم الزينة فى اكثر القرى، واجتمع الناس زرافات ووحدانا «يدبكون» ويرقصون، ويهتفون. وراية فيصل بن الحسين ترفرف فوق رءوس الجميع، وترتفع مزهوة في سماء الجبل العلوي. وعكف المجاهدون على بيوتهم يرممونها، وجراحاتهم يضمدونها، وأحوالهم يصلحونها، واعمالهم ينظمونها، وهم في مأمن من جور الليالي، وحادثات الايام.

وكان الشيخ في عرينه، مرجع الوافدين، والزائرين، والمهنئين، يهرعون إليه من كل حدب وصوب، تحدوهم تلك الرغبة الملحة في رؤية الشيخ، والتبرك بطلعته الميمونة الطاهرة. وأرسل الشيخ من لدنه رسوله الخاص، يحمل إلى المليك فيصل، نتائج هذا الظفر المبين. ويطلعه على

كيفية المفاوضات ، والنجح الذي أحرزه آخر الامر . وقد غمرت الشام والمدن السورية جمعاء ، موجة من الفرح والغبطة . وهم يتطلعون إلى ذلك اليوم الذي تغزو فيه جحافلهم العربية شاطيء البحر الابيض المتوسط ، وقد جلا الاجنبي عنه ، إلى غير رجعة بحول الله .

تقدير الاضرار

وطافت على أثر إعلان الهدنة لجان انكليزية ، وافرنسية ، وعلوية على الاماكن التي أصيبت باضرار ، من جراء الاحتلال . وكانت هذه اللجان تصطحب معها الخبراء ، في كل قرية كبيرة أوصغيرة ، وتحتفظ بوسائلها الخاصة ، بالوثائق التي تثبت الاضرار ؛ وتقدرها ، في سائر مناطق الثورة .

وقد حرصت هذه اللجنة ، على ان لا تترك شاردة ولا واردة إلا وتحصيها ، وألاّ تبخس أحداً من القرويين حقه ، وأن تعوضهم عما لحق بهم من الاضرار . وقد هال اللجنة مارأته من بوادر التخريب الشديد . الذي تبدو آثاره واضحة للعيان ، والذي ترك اكثر الفلاحين في مناطق الثورة ، وقد استولى عليهم الفقر . فأصبحوا يجدون بيوتهم مخربة ، واشجارهم مقطّعة ، وقد حلّ في ارضهم الخراب والبوار . وارتفعت

الارقام شيئاً فشيئا، فاذا بها تبلغ أعداداً هائلة، اضطرب لها الفرنسيون، وأبدوا صراحة هذا الاضطراب.

حيل الانكليز

على أن الذي لابد من ذكره، ونحن في معرض هذا الحديث، هو اعطاء القاري صورة مختصرة، عن عقلية الانكليز، وخلقهم ومناوراتهم التي يسير صاحبها في طريق، وعيناه متجهتان الى طريق آخر. ومن هذه الحيل والألاعيب التي ابداها الضباط البريطانيون أثناء المفاوضات انهم كانوا يحملون على مطالب الشيخ في النهار، ويؤيدونها في الليل. وذلك انهم كانوا يؤيدون الفرنسيين في حضورهم، ثم يهرعون الى معقل الشيخ بعد أن ينام هؤلاء، فيحفزونه ويحمسونه، ويلفتون انظاره الى كثير من الامور. ثم يظهرون له رغبتهم في تأييده حتى آخر لحظة وانهم غير منفكين عن مؤازرته، ولا متوانين عن مساعدته، وان الظروف السياسية هي التي تضطرهم، الى ان يقفوا من حلفائهم الفرنسيين هذا الموقف الظاهري البحت. واما في جوهر الحقيقة. فهم مؤيدون له كل التأييد، ومساعدون للثورة كل المساعدة. وحيثما يطلع النهار ويجتمع الشيخ مع الفرنسيين. كان البريطانيون ينقلبون على

احاديثهم في المساء ، فيتمرون ماشاء لهم التمر ، قائلين : انه لا يسعهم ان يضطرب حبل الأمن في هذا الجزء من الشرق العربي . وأنهم مضطرون إلى التدخل ، اذا لم يحسم الشيخ هذا النزاع . وكان الشيخ يتبرم من هذه الحال . ويكاد الغيظ أن يخرجه عن طور الوقار والسكينة فهو الرجل الصريح الذي لا يرضى بمثل هذه الاساليب المتناقضة ، ولا يستطيع اقرارها في حال من الاحوال . على أن البريطانيين كانوا يعرفون بعد ذلك كيف يرضون الشيخ ، ويتوددون إليه ، ثم يقنعونه أن ذلك الحديث ، انما كان في صالحه وحده ، لا في صالح الافرنسيين ! وكان البريطانيون يدأبون على التنقل في مختلف مناطق الثورة ، متصلين بالمجاهدين هنا وهناك ، يسألونهم عن أحوالهم ويتبسطون معهم في الحديث ويشجعونهم على المضي في المقاومة ضد الفرنسيين المحتلين . ويعدونهم بتقديم المساعدات لهم وتوفير كل ما تتطلبه الثورة من مصالح وحاجيات .

وهكذا كان البريطانيون في المفاوضات يمثلون دورين متناقضين متنافرين ، لا يزيد حماس احدهما عن الآخر !

من العابث بحرمة الهدنة؟

هذا سؤال دقيق ، اترك الجواب عليه للقاريء الكريم ،وارجو ان يكون على ثقة من أنني سأسرد عليه الحوادث،بدقة واخلاص وأمانة متجرداً عن كل عاطفة — اللهم إلا عاطفة الأمانة للتاريخ .

فاما العابثون بحرمة الهدنة ، بعد ان امتدت أكثر من شهر، فهم احد اثنين :

إما المجاهدون ، وإما الفرنسيون ، فمن هم ياترى ؟ ها كم هي الرواية ، وتلكم هي الأسباب :

١ كان القائد الفرنسي ، قد اتخذ له مقراً دائماً في قرية « عقرزبتى وقد ظهرت منه تهجمات بذيئة على كرامة الدين الاسلامي أثارت الشيخ ، واستفزته ، واستحثته على الانتقام فارسل انذاراً شديد اللهجة ، إلى ذلك القائد المتهجم مع مجاهد كريم يدعى «حسن أبو النصر »، فأمر القائد باعدامه فوراً بدون ابطاء . فاستاء الشيخ من هذا العمل ، وتأثر منه تأثراً كبيراً ، واعتبره تحدياً لكرامته ، وكرامة الثورة ؛ وكرامة الدين ، كما أنه خرق

صريح لقواعد الحروب في كل الأمم . لذلك أرسل جماعة من المجاهدين كمنوا للقائد عند نهر الحصين ، حتى إذا ما مرّ اطلقوا عليه وعلى جنوده العشرة الرصاص ، فقتلوهم عن بكرة ابيهم .

إن الشيخ لا يعتبر هذا العمل خرقاً للاتفاق المعمول به، ولا خروجاً عن مبدأ الهدنة ، بل يعتبره مقابلة الاعتداء بالاعتداء . بل ان الشيخ يعتبر أن الفرنسيين هم الخارجون على شروط الهدنة، والمتقضون عليها ؛ إذ انهم لم يجلوا كما تم الاتفاق . ولا أرجعوا شيئاً من المنهوبات إلى اصحابها ، بل بل انهم تابعوا استعدادهم « الضمني » لاستئناف القتال .

وقد فضحت نواياهم بالهجوم الذي شنوه عن طريق « حبسو » فلم يقدر له التوفيق المطلوب ، وانما كانت نتيجته الاخفاق — كما سيجيء .

وبعد هاتين الحادثتين كثرت تحرشات الفرنسيين بالمجاهدين ، وعادت الحال العسكرية ، كما كانت عليه . وبدأ الشيخ يتأهب لمقابلة الأحداث من جديد .

الهجوم على بانياس

في ١ تموز ١٩٢٠ وجهت حامية « قلعة المرقب » كتاباً الى الشيخ يخبره فيه أن تجمعات واحتشادات ، ترى بالعين المجردة حول بانياس ،

وانه لا يبعد أن تكون هذه التجمعات تستهدف الهجوم على القلعة واحتلالها الأمر الذي يؤمن المواصلات الفرنسية على الساحل، ويسهل لهم تجريد حملة كبيرة على طول الساحل، تذهب صعداً إلى الجبال. ثم يقترح قائد الحامية أن يعمد الشيخ إلى احتلال بانياس، والحؤول بين الجيش الفرنسي وتحقيق الفكرة التي يريد.

وفي ٣ تموز اجتمع الشيخ بضباطه في القدموس، ورسموا خطة الهجوم على بانياس، واحتلالها، ثم بدأوا بتنفيذ خطتهم هذه فوراً. ونشبت في بانياس معركة حامية الوطيس، هزم المجاهدون اخصامهم الفرنسيين حتى أدخلوهم في البحر.

وفي تلك اللحظة هب الاسطول الفرنسي، فأصلى الثائرين ناراً حامية، وأفسد عليهم خطتهم، فاضطروا للانسحاب بعد أن نهبوا الثكنة العسكرية، واحرقوا السراي، واوقعوا بحاميتها خسائر فادحة.

وقد ساهم المرحوم «اسماعيل باشا حينئذ»، في احتلال بانياس، مساهمة فعالة. واشترك فيها بنفسه مع الشيخ، وما يزال الشيخ يذكر حماسه واقدامه، رحمه الله. وفي معركة بانياس استشهد المجاهد «سليمان المعلم» من قرية «الحصان».

احتلال الفرنسيين الشام

وفي تلك الغمرة الموجعة من اخبار الانتقاض على الهدنة،ونكول الفرنسيين عنها ، جاءت الأنباء المفزعة أن الفرنسيين قد احتلو الشام ! وأن عاهلها العربي قد رحل عنها إلى مكان مجهول ! وقد سقط هذا الخبر المرعب على المجاهدين سقوط الصاعقة ، فاضطربت له النفوس ، وذهلت منه العقول . وشعر الجميع أنهم أصبحوا يحاربون بلا أمل . وسرت بين المجاهدين فكرة التسليم ، فأقرها قليلون،ورفضها كثيرون . وكان جواب الشيخ على ذلك أن حمل بندقيته ، وصاح بأعلى صوته من أراد الدفاع عن الوطن فليتبعني ، اني لن أترك السلاح ؛ حتى يستقل هذا الوطن اواموت وماتت فكرة الاستسلام،وحل محلهاشعور النقمةوالانتصار للوطن الجريح .

واختلى الشيخ بضباطه ، واطلعهم على حراجةالموقف الذيوصلوا اليه . وكيف ان الامدادات الهائلة ستقطع عنهم ، وان احتلال حمص ، وحماة ، وحلب سيحول بينهم وبين الحصول على مايعوزهم من سلاح وحاجيات . وقلبوا الامر على جميع وجوهه ، فوجدوا ان الاقتصاد ما أمكن هو خير وسيلة لاستمرار المقاومة ، ومتابعة النضال حتى النهاية

وعلى الأثر اصدروا قراراً الى المجاهدين كافة ، بأن يقتصدوا بالذخـيرة ، فلا يطلقون منها عياراً إلا عند الحاجة القصوى ، وفي اوجهها الصحيحة .
ثم بثت الرسل في سائر المدن السورية تستحث الهمم ، وتطلب المعونات فالثورة بدون ان تموّل من الخارج ، لا يمكن ان تعيش خصوصاً بعد ان سدّت في وجهها السبل ، وأغلقت الأبواب . وقد لقي ذلك النداء آذاناً صاغية عند اصحاب الشعور الحي ، والمبادئ الصحيحة — وما أكثرهم والحمد لله ، في هذه البلاد . وكانت حماه اول من استجاب لصرخة الثوار وفتحت لمعونتهم الجيوب والصناديق .

وحماه هذه ... مفخرة من مفاخر الزمن القديم والحديث؛ لا تأتي الا في الطليعة ، ولا تمشي إلا في المقدمة . وحسبك ان تعرف ان ابن حماه البار الاستاذ « بدر الدين علوش » أول من اقترح اقامة حفـلة تكريمية كبرى لمجاهدنا الكبير الشيـخ صالح العلي — وهكذا لا يعرف الفضل إلا ذووه .

دسائس بعض المتزعمين

وعقب انباء احتلال الشام ، أراد الفرنسيون ان يستغلوا انانية بعض المتزعمين من العلويين ، وغير العلويين — وهم دائماً ـ والحمد لله ـ

مطايا ذلُل للراكبين — نقول أنانية « البعض » ولا نقول الجميع ، فان بين الزعماء العلويين قوماً كراماً، يحتفظ لهم تاريخ الثورة بأجمل الذكريات وانصع الصفحات .

وقد اغروهم بالوظائف ، والمناصب ، والمال . وطلبوا منهم التدخل مع الثائرين ، للانفضاض من حول الشيخ ، وحينئذ يسهل اقتناصه . والتغلب عليه . وقد اتخذ هؤلاء من احتلال الشام وسائر المدن السورية ، طريقاً معبدة للولوج في اساليب الافحام والاقناع ولكنهم مع ذلك باءوا بفَشل شنيع ، ومنوا بخيبة مريرة ، واخفاق مشين ، وكانت صرخاتهم وكتاباتهم تذهب ادراج الرياح ، وليس لها من سامع ولا مجيب . واثبتوا للعالم انهم غير جديرين بالأطاعة ، واثبت لهم العالم انهم غير جديرين بالاحترام .

وبقي الثائرون على ولاء قائدهم الشيخ ، وهم أكثر مايكونون بطولة ورجولة وحماساً .

هجوم رسّاك

وفي تلك الاثناء هجم الكابتين « رسّاك » على الشيخ بدر عن طريق صافيتا ، ونصب مدفعيته على رأس الجبل الموازي « لجبل المريقب » .

والذي يقع في أعلى قرية القليعات. ويفصله عن جبل المريقب واد سحيق، عميق الغور، لايستطيع الماشي أن يقطعه باقل من ساعة كاملة، ولا تستطيع «الدواب» ولوجه بالنظر لعلوه الشاهق، وكثرة أشجاره وصخوره.

وبدأ « رساك » يصب نيران مدفعيته على قرية (المريقب) مغتنماً فرصة الهدنة المعقودة وتفرق المجاهدين.

وحينئذٍ هجم الشيخ « سليم صالح » الرجل المعروف، ومعه اربعة مجاهدين وهم: احمد الحسن، وسليم شاويش، وعبود وسوف، وعلي سليم، وقد هبطوا من (جبل المريقب) تحت وابل من رصاص مدفعية العدو. ولما وصلوا إلى أسفله اجتازوا النهر، وتسلقوا (جبل القليعات) وهم في حمىً من أي تأثير؛ بالنظر لوعورة الجبل وعلوه الشاهق.

وما شعر « رساك » وجنوده، إلاّ وقد أطبق عليهم رصاص الابطال الخمسة من الوراء، فدبّ في قلوبهم الذعر، واضطربوا وهم يرون رفاقهم يصرعون برصاص المجاهدين المختفين عن الانظار.

فأسرع (رساك) ورجاله بالهرب، بعد أن تركوا سلاحهم، ولحقهم المجاهدون إلى قرية (جورة الجواميس)، ثم تبعوهم إلى قرب صافيتا، وهم يعنون بهم سلباً وتقتيلاً. ورساك يعتقد أن مئات المجاهدين، وليس وراءهم، سوى اولئك الخمسة الاشاوس.

ولا ريب في أن هذه المعركة دليل قوي على بطولة خارقة، وصورة

مصغرة عن رجولة المجاهدين العرب ، وشجاعتهم وبسالتهم .

احتلال الدريكيش وآل شمسين الكرام

وقد اغتنم المجاهدون فرصة اندحار « رساك » ورجاله ، فهجموا على قرية (الدريكيش) تحت قيادة الشيخ سليم صالح ، والشيخ جابر الحطانية ، واسبرزغيبي — المجاهد الذي كان له في كل معركة اثر ، وفي كل ميدان خبر — فاحتلوا السراي ، واستولوا على السلاح المدّخر فيها ،

وحاولوا الانتقام من بعض الخائنين ، والمتآمرين على الثورة ، لولا تدخل الزعيم المرحوم أنيس افندي العمر — الذي استقبلهم احسن استقبال ، وقدم لهم الزاد واللباس والمال ، بالاشتراك مع ابن عمه الشاب الوطني الجريء السيد رشاد العمر .

وقد نقم الفرنسيون على الزعيم المرحوم ، وابن عمه المفضال ، ثم تعقبوا نجله الأكبر السيد محمد الأنيس ، ولو قيض لهم أن يقبضوا عليه حينذاك لذكر الناس اسمه بين الشهداء . ولكن الله كان أرحم من أن يوقعه بين ايدي اولئك السفاكين — الذين انتقموا منه فيما بعد فشجعوا الغير على اغتصاب أملاكه ، وأملاك أقربائه ! كما يعرف الناس في هذا المحيط .

والشيخ ـ أعز الله الشيخ ـ مايزال يتحدث في كثير من الرضى والارتياح عن عطف الزعيم انيس العمر واقربائه على الثورة، وعن المعونة التي كانوا يقدمونها لها في كل مناسبة، مستهدفين في سبيل ذلك لأشد الأخطار.

وانه لموقف مشرف من هؤلاء الرجال النبلاء الذين يعود تاريخ اسرتهم العريقه (آل شمسين) الى أقدم تاريخ في العلويين، والذين يعتبرون أعرق أسرة وأقدمها في هذه الجبال. ولهذه الأسرة الكريمة فضل كبير على المنشآت الخيرية في الجبل العلوي كله. فهي التي وقفت الأملاك والأرزاق في سبيل المثل الانسانية العليا.

ان الموقف الايجابيّ المثالي من هذه العائلة الكريمة تجاه الثورة، لمما يعزي بعض العزاء عن مواقف الزعماء الآخرين، الذين ترجع مصادر ثرواتهم إلى هبات (آل شمسين) الكرام، والى اوقافهم وهداياهم. وقد رضي «آل شمسين» أن يوزعوا ثروتهم الكبيرة الضخمة في الثلاثة الأقضية الجنوبية على الزيارات والمشايخ والفقراء، وألاّ يحتفظوا إلا بجزء يسير منها.

وتلك لعمري أعمال انسانية مثالية ستخلد ذكرهم العاطر إلى الأبد وتسجل أسماءهم الكريمة بأحرف من نور.

الصلح مع الاسماعيليين

وبعد ان لاقى اخواننا الاسماعيليون من عنف الحرب، وشدة وطأتها ما لاقوا، وبعد ان شاهدوا الفرنسيين يتركونهم في خط القتال ثم يتخلون عنهم، ويرمونهم في الأتون الملتهب، ثم يحولون بينهم وبين وسائل النجاة.

اجل... لما رأى الاسماعيليون ذلك، وعرفوا أنهم قد اصبحوا كبش المحرقة، وان الضربات اللازمة تقع على رؤوسهم، وتنفذ إلى قلوبهم، وان الفرنسيين يعمدون إلى طلب الصلح والمفاوضات، دون ان يعبأوا بهم، او يسألوا عنهم. فقد ملوا هذا الشقاق والنفار، مع اخوانهم في العقيدة والعرق والدين، ومع جيرانهم الاقربين في السكنى ولذلك عمد مشائخهم الأفاضل المحترمون لاجراء صلح ثابت بينهم وبين اخوانهم العلويين. متعهدين على انفسهم بالحياد المطلق الذي لا تشوبه شائبة، ولا يعكر صفوه شيء - وهذا التعهد لا يشمل إلا الاسماعيلي النهر في قضاء (طرطوس) ويستثني منه اسماعيليو «القدموس» و«مصياف».

وقد قبل الشيخ هذا الطلب بمنتهى الرضي والسرور، إذ أنه

لا يحمل في نفسه أي موجدة ولا عداء لأحد من المخلصين. وان الظروف السياسية وحدها هي التي اضطرته لأن يقف منهم ذلك الموقف المعروف ولكنه طلب من الاسماعيليين - لكي يثق بصحة تعهداتهم - أن يسلموا سلاحهم أولاً للثائرين. فيكون ذلك دليلاً منهم على حسن النية، وسلامة القصد. ولكي لا يتسرب شيء من الشك إلى نفوس بعض المجاهدين، ان اخوانهم يحملون لهم شيئاً في الخفاء، وانها قد تكون دسيسة افرنسية مقصودة. ثم تنازل الشيخ بعد ذلك عن هذا الطلب وتم الاتفاق.

فعكف الاسماعيليون على قراهم يعمرون ماتخرب منها وانصرفوا الى اعمالهم، كأن لم يحدث بينهم وبين اخوانهم شيء. ونسوا الجراح الدامية التي احدثوها باخوانهم واحدثها اخوانهم بهم. بلى... لقد نسي العلويون والاسماعيليون كل شيء، وهكذا فليكن الصفح، والتسامح، وصدق الاخاء.

هجوم غورو من الشرق

بعد الانكسارات المتوالية التي مُنيَ بها الجيش الفرنسي في معارك «السوده»، وفي هجوم (بولنجي الكبير) والتي لاقى منها

الامرّين ، وبعد الانهزامات المنكرة ، وما جرت عليه ،وعلى حكومته وبلاده ، من سمعة سيئة ، وضجة عنيفة صاخبة،رأت الحكومة الفرنسية أن يشرف الجنرال (غورو) بنفسه على الحملات الحربية العنيفة في بلاد العلويين .

واننا إذ نقول« العمليات الحربية » فاننا نستقي هذا التعبير الضخم للثورة من البلاغات الحربية نفسها ، والتي اصبحت تتحدث بشيء يشبه الصراحة ، عن ضخامة الثورة ، وعنفها ، و كثرة ضحاياها .

ورأى الجنرال غورو بخبرته العسكرية ، ومناوراته المعروفة ، انه من الصعب التغلب على الثائرين من الامام . وان ذلك لن يتم الا بعد انجاز عملية تطويق سريعة ودقيقة ، فهيأ « حملة » قوية هجمت على الجبل العلوي من الشرق ، عن طريق « مصياف » التي احتلت بعد احتلال مدن الشام . وقد استطاعت هذه الحملة ان تحتل المرتفعات الواقعة هناك وتدعى « جبال القماقم » ، وهي مرتفعات منيعة جداً، وتشكل سلسلة من الهضاب متصل بعضها ببعض . وهي مكسوة باشجار كثيفة تحجب فرقاً كاملة عن العيان وكان ذلك يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ .

تطويق جيش غورو

وما أن بلغ الشيخ أنباء هذه الحملة من الشرق وكيف تم هجومها الصاعق بسرعة لم تكن منتظرة، ولا مترقبة، حتى اهتم لها اهتماماً كبيراً، فجمع المجاهدين، ونظم صفوفهم، وسيرهم في جهات متعددة بغية تطويق الجيش الزاحف الرهيب.

وبالنظر لمعرفة السكان بطبيعة ارضهم، ومسالك جبالهم، وتشعبات طرقها، فقد بدأوا بتنفيذ خططهم بمهارة فائقة، وسرعة عجيبة. وبالنظر لأن طبيعة الأرض هناك تَسمحْ للجيش بان يحتشد بصورة متلاصقة مرئية، فقد كان مضطراً لأن يجري زحفه وسط جبال عديدة، ووديان كثيرة. وهذا ما سهّل لقيادة الثورة أمر الهجوم على مؤخرة الجيش بدون أن تعرف المقدمة عن ذلك شيئاً. فقد كانت قيادة الجيش الفرنسي واثقة من أن ظهرها محميّ ولا خطر عليه، ولذلك كان اهتمامها مرتكزاً لترقب الثائرين من الامام، وبهذا استطاع الثائرون أن يعزلوا المقدمة عن المؤخرة. ونشب قتال عنيف بين هذه وبين المجاهدين — اضطرها آخر الأمر على الرجوع القهقرى «إلى مصياف»، وهي في حال من

الذعر والفوضى ، ليس لها مثيل . وقد أكمل المجاهدون نطاق التطويق حول بقية الجيش المعسكرة في (عين قضيب)، ومنعوه من أي اتصال مع الخارج . وكانت تلك المنطقة المجدبة خالية من ينابيع المياه . فحل العطش بافراد الجيش الفرنسي حتى أصبح في حال انحلال ظاهرة . وبعد يومين من عملية التطويق كانت الامدادات الفرنسية قد وصلت من مصياف — بعد ان اتصل بها الخبر من الجنود الفارين . وقد هجمت على الثائرين من الوراء ، ومن نقاط عديدة ، فاضطروا حينئذ الى فك الحصار وبهذه الوسيلة أمكن تخليص البقية الباقية من ذلك الجيش بعد أن أشرفت على الهلاك ، وقد حُمل أكثر افرادها ، وهم في حال خطرة من الاعياء والعطش الشديد .

المؤامرة على حياة الشيخ

وبينما كانت هذه المعركة في إبان احتدامها ، وامتدادها ، إذا باحد الرجال المنخرطين في صفوف الثورة ، يقترب من الشيخ ؛ ويطلق في الجو خمس طلقات نارية ، ثم يبتعد عن المكان بسرعة ، وقد لفتت هذه الحركة الغريبة احد خفراء الشيخ ، وهو خادمه الامين «سليم شاويش» فاسرع الى الشيخ يطلعه على ذلك ، ويظهر له مخاوفه من هذه الحركة

المفاجئة ؛ التي تنم عن مؤامرة جديدة ، على حياة قائد الثورة ، اختير للقيام بها احد الثائرين ، الذين انتظموا في صفوف الثورة للتجسس والدس.

واسرع الشيخ بالابتعاد عن ذلك المكان ، وماهي إلا لحظات حتى بدأت قنابل المدفعية والطائرات ، تتساقط بكثرة هائلة على ذلك المكان . واصيب أحد حراس الشيخ المدعو « سليم زينة » باحدى عشرة طلقة اخترق أكثرها جسمه ، ومع ذلك فانه لم يعالج الا بالزيت الحلو - كما مر - وقد شفي تماماً ولم يتوفه الله ، الا منذ سنة تقريباً .

واتضح بعدئذ ان ذلك المتجسس انما كان قد اتفق مع الفرنسيين على هديهم الى مقر الشيخ بواسطة خمس طلقات في الهواء على ان يتقاضى عن ذلك الثمن الذي تقاضاه يهوذا الاسخر يوطي ثمناً لسيده المسيح .

ولهذا الجاسوس عدة حوادث بالتآمر على حياة الشيخ ، ابطلها الله جميعاً ، واوقعه بالخيبة والحرمان .

حصار مصياف

وأدرك الشيخ ان احتلال الفرنسيين لمصياف ، وابقاءها في قبضة ايديهم ، يشكل خطراً مباشراً على الثائرين ، ويعرضهم لهجوم مفاجيء من الشرق ؛ يعززه هجوم آخر من الغرب ، فيصبح المجاهدون بين نارين ، ويتعرضون لاخطار تطعن قواهم في الصميم .

ولذلك قرروا مهاجمة «مصياف» واحتلال الجبال المشرفة عليها من جهة الغرب ، وبهذا يسهل الدفاع عن الجبل العلوي من الشرق مادامت المرتفعات الحصينة بايدي الثائرين .

وفي خريف ١٩٢٠ شن المجاهدون غارة كبرى على «مصياف» واحاطوا بها من جميع جوانبها وجهاتها ، وضيقوا عليها الخناق . وقد استبسلت حاميتها ، واستماتت بالدفاع عنها . وكانت رحى المعركة دائرة حول السور المحيط بمصياف ، حتى أن المجاهدين كان ينادون المدافعين ويطالبونهم بالتسليم . وكان هؤلاء يجيبونهم بالرصاص . ولم تشهد معارك موقعة كانت أشدَّ صلابة واستماتة من حصار مصياف ، فقد استبسل فيها الفريقان ، واستمات الجانبان .

ولولا مناعة القلعة ، واشرافها المباشر على المدينة وما يحيط بها وكثرة الجنود المحاصرين ، ووفرة مالديهم من السلاح ، لما وقفت مصياف أكثر من ساعات ، ولكن موقف أحد الزعماء المحليين ، قد بدل الحال تماماً ، إذ انه أرغم بعض اتباعه على التراجع والانسحاب .

وقد جرى ذلك التدخل الغريب على مشهد من أعين المحاصرين وعلى مرأى من أعين الليالي ، ومسمع من ضمير الوجود .

ان للتاريخ عيوناً ، تبصر ، وآذاناً تسمع . وان ابصارها لتنفذ من وراء الاجيال . وآذانا لتسمع من الصميم .

ودام الحصار أياماً طويلة ، انقطعت فيها اسباب الحياة عن المحاصَرين ومع ذلك فما فتئوا يقاومون بعناد ، ويناضلون بشراسة وثبات .

وفي إبّان احتدام المعركة واشتدادها ، ظهرت بوادر حملة قوية آتية لنجدة المدينة المحاصرة عن طريق حماة . فاضطر المجاهدون لفكّ الحصار حذراً من التطوق . وقد استشهد من المجاهدين في هذه الموقعة الهائلة عدد غير قليل . ومنوا بخسائر فادحه في العتاد والارواح .

الشيخ يرجع المنهوبات لاصحابها

ولما كان الشيخ يعرف تمام المعرفة أن لحمة الثورة ، وسداها ، هي في تنظيمها الداخلي ، وعطف الأهلين عليها ، وفي استقامة الثائرين ، وتمنعهم عن القيام بأي عمل من شأنه الاخلال بسمعة الثوره ، وكرامتها . فقد كان يراقب اعمالهم مراقبة دقيقة واسعة ، ويحب الاطلاع على كل شاردة وواردة منها ، وقد بلغه ان بعض المنخرطين في صفوف الثورة للاساءة والتخريب ، يعمدون الى نهب القرى ، وسلب الاموال ، وقطع الطرقات . وانهم يستعملون في سبيل ذلك وحشية هي أبعد ما تكون عن مثالية الثورة وغايتها ، واهدافها .

ولذلك فقد توجه بنفسه الى قرية « الصقيلبية » في قضاء مصياف لردّ المنهوبات الى أصحابها ، السيد « عبدالكريم الرستم » واقربائه المحترمين وقد استطاع الشيخ ان يجمع المنهوبات بأسرها ، وأن يعيدها الى اصحابها ، وان يعاقب المجترئين على ذلك العمل الوحشي الدنيء .

ونجم عن ذلك ان تخلي الشيخ عن الجبهة ليحافظ على سمعة الثورة ، وليحول دون استغلال العناصر الداسة الخبيثة لها . ولكي يقطع دابر الخيانة والاجرام ، على كل خائن ومجرم .

الفرنسيون يغتنمون الفرصة

وقد اغتنم الفرنسيون فرصة غياب الشيخ في جهات مصياف ، ومعه أكثر المجاهدين . وخيرة العقداء ، وأخليت الساحة في الشيخ بدر لأن أكثر المجاهدين كانوا يتبعون شيخهم ايما سار ، ويتجهون معه كيفما اتجه . مع ان الشيخ نفسه كان يأمر العقداء بألاّ يتخلوا عن أماكنهم في حماية الثغور ، وكان في إبّان حصار مصياف ، مايفتأ يكتب اليهم منذراً ومحذراً من هجوم مفاجيء يحذقه العدو ، ويأمر الحامية بألا تتخلى عن مراكزها — لا في الليل ولا في النهار .

أجل لقد اغتنم الفرنسيون فرصة غياب الشيخ في جهات مصياف ووجدوها فرصة سانحة قد لاتعود. فخزموا أمرهم على توجيه ضربة قاصمة الى عرين الثورة ؛ وحصنها الحصين .

وثبت فيما بعد ، ان الهجوم الذي شنه الجنرال «غورو» من الشرق لم يكن إلا بمثابة تغطيةٍ للهجوم الكبير الذي يعده من الغرب ، مستهدفاً من ورائه احتلال (الشيخ بدر) ، ومناطق الثورة الرئيسية . ويثبت ايضاً انه اراد من ذلك الهجوم ، عن طريق مصياف ان يحول انظار قادة الثورة الى تلك الجهات ، وان يرغمها على سحب أكثر المجاهدين إلى الشرق . وبذلك تتوزع قوى الثائرين ، وتخلو الساحة للجيوش المهاجمة من الغرب .

وقد نجحت هذه الفكرة ايما نجاح ، الامر الذي يعود إلى وسائل التغطية التى عمد اليها العدو ، والى تلك المناورة الجهنمية التي فتحت الجبهة في مكان بعيد عن الحسبان والانظار .

الهجوم الكبير على (الشيخ بدر)

وبينا المجاهدون في غمرة من المعارك حول « مصياف » والشيخ مهمٌ بالاشراف على تسيير هذه المعارك ، وردِ المنهوبات الى اصحابها . اذ

بالجيوش الفرنسية ، تتقدم في زحفها الهائل نحو « الشيخ بدر » على مسافة من الارض تبلغ عشرين كيلو متراً . وكانت تتقدم بدون اي مقاومة تقريباً ، فالمجاهدون وعلى رأسهم الشيخ كانوا منهمكين في القتال بالقرب من مصياف ، والساحة خالية الا من حامية قليلة العدد موزعة هنا وهناك وتلك غلطة فادحة لاريب فيها .

وكان العدو في هجومه الحثيث إلى الامام ، يعتقل كل من يراه في طريقه حتى العجائز والاطفال . وكان جنوده المتوحشون ينشرون الذعر والرعب في كل مكان . واحتل الجيش اكثر المرتفعات المحيطة « بالشيخ بدر » ووزعت الجنود في كل هضبة ، وعلى كل طريق ، واستحالت تلك البقعة الواسعة من الارض إلى معسكر مترامي الاطراف ، يحتشد وراء حواجز منيعة من الصخور والاشجار ، وكانت الطائرات ما تفتأ تجوس خلال الديار ، متلصصة مترقبة ، وقد اغتنمها الجيش مناسبة صالحة للتنكيل والانتقام . فلم يجد أمامه إلا بعض الأبرياء المسالمين ومع ذلك فلم يتورع عن البطش والفتك والتعذيب والتخريب ، وقد أحرق قرية المريقب ، وسائر القرى المحيطة بها ، وتركها طعاماً سائغاً للهيب .

موقف الشيخ

وذهبت الاخبار مسرعة إلى الشيخ، والمجاهدون مايزالون في منطقة مصياف. وروّع الشيخ هذا النبأ القاصم، وأيقن أن استجلاب المجاهدين إن هو إلا مكيدة مدبرة، نجحت في تنفيذ خطة الكائدين اءا نجاح.

واجتمع الشيخ بضباطه، وسألهم عن الطريق التي سيسلكونها، بعد تطور الموقف هذا التطور الغريب. وانقسموا على بعضهم، فمنهم من خارت عزيمته، وقعدت همته، ومنهم من زاده هذا الحادث استئساداً واستبسالاً. فاما الأولون، فقد أقصاهم الشيخ، وأما الآخرون فقد ربط مصيرهم بمصيره، والامر يومئذ لله وأما المجاهدون فكانت وصلتهم الاخبار، أن نساءهم وأطفالهم قد أصبحوا رهائن في أيدي العدو، ولما كان اكثر المجاهدين آباء، فقد استيقظت فيهم عاطفة الابوة، وأرغمتهم على الرضوخ والتسليم.

وهكذا لم يجد الشيخ حوله، بعد تلك الهزيمة النكراء، إلا اشخاصاً معدودين! ولكن الشيخ قد اعتز كثيراً بهؤلاء القلائل، متمثلاً بقوله تعالى «وكم من فئة قليلة، غلبت فئة كثيرة باذن الله».

رجوع الشعلان

وكان لهذه الهزيمة المنكرة أثر كبير في نفس المرحوم «غالب بك الشعلان» فقد أيقن أن الثورة ، أصبح مقضياً عليها لامحالة ، وان آمال المخلصين قد تحطمت على صخرة عاتية من الخيبة ، واليأس ، والخذلان . وانه لم يعد بالامكان اصلاح الحال ، ولا اعادتها إلى ما كانت عليه، ولهذا خف مسرعاً لمواجهة الشيخ في « مصياف » ؛ وهناك اجتمع المجاهدان الكبيران ، وفي غمرة من اليأس المرير والاسى ، ودّعا بعضهما، وهما في حال لايستطيع التعبير عنها لسان ولا بيان . وعرض الشعلان على الشيخ ان يرافقه الى الصحراء ، فأبى الشيخ إلا العودة إلى الجبل ليتم رسالته هناك. وهكذا عاد الشعلان، ومعه بعض رجاله الاوفياء، وبقي الشيخ مع بعض الرجال الاوفياء .

حيرة الشيخ

وقلّب الشيخ الامر من جميع وجوهه، وأجال الطرف يمنة ويسرة،

باحثاً عن بيئة تصلح لاشعال نار الثورة، وإلهاب جذوة القتال، وتنازعت الشيخ عوامل كثيرة، لا عد لها ولا حصر، وساءل نفسه: أين يجب المضي؟ وأين يجب المكوث؟ أيبقى في المناطق الجنوبية يشكل العصابات ويقض مضاجع الجيش، ويعمل على تهيئة وسائل الثورة من جديد؟ أم انه يتجه إلى الشمال، وعشيرته في تلك الجهات عزيزة الجانب صعبة المنال؟ أم انه يعبر الحدود إلى ماوراء الحدود، حيث ينتظره مصير مجهول، ومستقبل مجهول؟ أم انه يعترف بواقع الهزيمة، فيستسلم إلى الفرنسيين؟

أسئلة لم يجد لها اي جواب، وعلاماتها الاستفهامية مرسومة على الآفاق البعيدة في كل مكان، وأنظار الشيخ ماتفتأ متنقلة بين هذه العلامات واحترم الرجال الباقون صمت الشيخ، وثبتوا أنظارهم فيه، وقد وطدوا العزم على البقاء في ركابه حتى الموت.

الشيخ يتجه الى الشمال

وبعد لأي قطع الشيخ حبل ذلك الصمت الطويل، وانفرجت شفتاه المطبقتان عن بسمة أشبه ماتكون بالنذير. وإذا به يعلن لمن حوله من الأمناء، أنه لن يترك الساح للمحتلين، وانه سوف يتم رسالته في الجهاد ويتحمل اعباءها الى النهاية. ثم وقف الشيخ وقال: اني مسافر الى

الشمال ، وسأشعلها هناك ثورة دامية ، تقذف بالاجنبي الى البحر ،وسار الشيخ ، وتبعه ثلاثة من المجاهدين ، وتخلف الباقون على ان يتبعوه بعد ايام.

وهكذا انطوت صفحة من حياة هذا البطل الخالد ، وابتدأت صفحات.

اعدام بعض المجاهدين

وقد اتخذت القيادة الفرنسية مقراً لها في قريتي (القمصية) و(الشيخ بدر) . ثم بدأت تطلب الزعماء ، والمشائخ ، والوجوه المسالمين، وتعتقلهم جميعاً ، وشكلت بعدئذ مجلساً عرفياً ثم بدأت في محاكمة المجـــاهدين. وراجت حينئذ سوق الدسائس والوشايات في ايّ مكان ، وضد اي كان . وحكمت يومئذ بالاعدام على المجاهدين :

علي زاهر	قرية حمام واصل	قضاء بانياس
محمود ضوا	〃 العصيبة	〃 〃
محمود علي اسماعيل	〃 الحطانية	〃 〃

ابو محمد الخلاعي		وقد اعدم في مدينة حماة	
جميل ماميش			اللاذقية
اسبر زغيبي	قرية قرقفتي	»	بانياس
الشيخ جابر محمد	» الحطانية	»	»
محمد ابراهيم الشيخ	» العنازة	»	»
الشيخ خليل الخطيب	» برمانة المشائخ	»	»

وقد اعدم الاربعة الأولون فوراً ، واستطاع الآخرون الهزيمة والنجاة .وقد لحق بعضهم بالشيخ الى الشمال ، وكان حينئذ يخوض معركة « فتوح » . وبدأ بتحصيل الضرائب من القرى المحتلة عن ثلاث سنوات مرغماً الأهلين على بيع دوابهم واملاكهم، لتسديد الضرائب لاولئك السفاحين.

واما الزعماء المعتقلون ، واخصهم الشيخ علي احمد ميهوب ،والسيد محمد اسماعيل ، ونجله الاكبر السيد انيس، فقد بقوا رهن الاعتقال والاسر ماينوف على السنتين . والجيش يأخذهم معه ايما توجّه ،وكيفما حل . وحينما تحتدم المعارك كان يضعهم في طليعة الجيش الزاحف ولكن ذلك لم يضعف من بأسهم ، وانما شدّده ، وقواه ؛ وغذاه .

الشيخ في الشمال

ووصل الشيخ الى قرية « بشراغي » وكانت انباء فشل الثورة في الجنوب قد ملأت الاسماع والأفواه. فاضطربت لها قلوب الناس، وخافوا على مصير شيخهم الجليل، ووطنهم العزيز. وعرف الناس بمجيء الشيخ، فهرعوا اليه من كل حدب وصوب، يتبركون برؤيته وينعمون بطيب لقياه. وغمرت تلك الارجاء موجة من البشر والطمأنينة، ليس لها حد.

ودوّت اخبار وصول الشيخ الى «بشراغي» حيث بلغت اسماع الفرنسيين، فأحبوا مبادهته بالهجوم، قبل ان يكمل الاستعداد، ويتأهب للدفاع. والشيخ ما يزال في منأى عن الرجال المحاربين الذين يستطيع الاعتماد عليهم. اذا ما دقت الساعة، واحتدم القتال وهو احوج ما يكون الى السلاح، وليس في يده منه الا بنادق معدودات.

تلك حال مؤسفة لو اردنا الافصاح عنها، لاسودت وجوه، واصفرت وجوه، ولكننا آلينا على انفسنا الاّ نذكر أحداً من المسيئين. على انه من الحرام ان تنطوي هذه الذكريات، ثم تذوب وتضمحل، وفي

بطونها اسماء، كان من الخير ان تذكر، حتى تنال نصيبها من الهجاء، مثلما ينال المحسن نصيبه من الثناء.

وقد كان لموقف (آل عيد الكرام) تأثير كبير على معنوية المجاهدين في شتى مراحل ثورة الشمال، ولا غرو فان لهذه الاسرة العريقة مكانة مرموقة، ومركزاً محترما مكنها من شد أزر الثورة ومساعدتها حتى النهاية. وقد لعب مشايخ تلك الجهات ادواراً هامة في الثورة، مكنت العزيمة والثقة في نفوس الثائرين. ومن اولئك المشايخ المحترمين الشيخ عيسى محمد الذي كان لصلاحه وفضله وتقاه؛ أثر فعال في نفوس المجاهدين جميعاً.

معركة فتوح

في أوائل تشرين الثاني ١٩٢٠ دعا الشيخ بعض وجوه تلك النواحي، للاجتماع بهم على مقام الشيخ «حيدر الضهر»، والمذاكرة معهم بشأن الثورة ووجوب استمرارها، حتى تخلص البلاد من نير الاحتلال.

وبلغ الفرنسيين أمرُ ذلك الاجتماع، فسيّروا خمسمائة جندي لمجابهة الشيخ ورفاقه المجاهدين. وسلكوا طريقاً لهم في «وادي فتوح». وهو

وادٍ تقع على جانبيه هضاب مرتفعة، تشرف على مداخله ومخارجه إشرافاً تاماً.

وكان الجيش يسير سيراً وئيد الخطى، بطيء الحركات، فكأنه واثق من نجاحه، والوصول إلى هدفه، بدون تفكير أو ازعاج.

وبلغ الشيخ أمرُ هذا الجيش، ولم يكن عنده وقتئذ من الرجال المسلحين إلا ثلاثة، وهم: ابراهيم خليل شعبان، وابراهيم حبيب، وعبدو مرشد، وإلا بعض العزل الآخرين الذين لا يحملون سلاحاً، ولا يعرفون ما هو السلاح.

وقد استنفر «آل عيد» الكرام رجال «بشراغي» والقرى المجاورة لهم، بسنديانا، وجيبول، والحمام، و«آل سيف الدين» من قرية الكنيسة الذين أبلوا في معارك الشمال أحسن بلاء. فهبوا يحملون بنادق الصيد من قديم وجديد، وبلغ الحماس بهم أن أسرع بعضهم وهم يحملون العصي والفئوس، كأنهم ذاهبون لسوق قطيع من الغنم، او حفر خنادق في الارض. ولكن تجمهرهم، ورباطة جأشهم، وشدة بأسهم، واقدامهم المستميت على الهجوم، ألقى الرعب في نفوس الجيش الزاحف، وسهّل المهمة على الشيخ، ورجاله الثلاثة.

واستمرت المعركة سحابة النهار، وما لاح الظلام حتى كانت قد انتهت، وخيَّم على ذلك الوادي سكون رهيب. ولم يستطع الفرار من

رصاص الشيخ ورجاله في تلك الحملة إلا واحد وسبعون رجلاً تسللوا تحت جنح الظلام، بعد أن تركوا معداتهم وأسلحتهم وظلوا معتصمين في سراي « عين الشرقية » حتى بعثت اليهم القيادة العسكرية جيشاً انقذهم ، وعاد بهم إلى هضبة « كابو » في قرية « قصابين ». وقتل يومئذ إثنان من قرية (زاما).

ودوت أخبار النجح في هذه المعركة، حتى غمرت سائر الجهات، وكان لها صدى هائل في الأنحاء الشمالية جمعاء. فبدأ الناس يتقاطرون أفواجاً للتطوع في الثورة، والانخراط في صفوف المجاهدين. وكان للسلاح الذي غنموه يد طولى في انجاح المعارك التي حصلت بعدئذ في تلك الجهات.

واجتمعت أكثر العشائر في ناحية « البودي » - وكان يرأسهم يومئذ المقدم ابراهيم صالح ، وعاهدوا الشيخ على السير تحت لوائه حتى الموت.

معركة وادي جهنم

وكانت معركة (فتوح) إيذاناً باندلاع نيران الثورة والتهابها ، فتحولت وجهة الجيش الفرنسي إلى تلك الجهات ، وأرسل حملة قوية

جبارة ، كانت تستهدف تطويق قرية « بشراغي » و «موقع الشيخ حيدر الضهر » واحتلالهما ، والقضاء على « الثورة الشمالية » في مهدها ، قبل أن يُتاح لها التوسع والانتشار .

وهناك في « وادي جهنم » بالقرب من قرية (أبي قباس) كانت اولى الاصطدامات الهائلة ، بعد أن تم تشكيل فيالق المجاهدين في الشمال . وقد هزم الجيش الفرنسي شر هزيمة ، وقتل من رجاله عدد كبير ، كما أنه استشهد في تلك المعركة بعض المجاهدين - بعد ان قتل أحدهم خمسة عشر جندياً .

ثم والى الفرنسيون إرسال حملات إلى منطقة الثورة حتى يحولوا بين المجاهدين ، والتمركز هناك . ووقعت اصطدامات كثيرة بين الثائرين والجنود ، لعل أبرزها يومئذ معركة « تل صارم » الواقعة بالقرب من قرية «بسوطر» . واستشهد في هذه المعركة المفاجئة بعض المجاهدين وقتل عدد من الجنود . ومعركة (جب عسعوس) الكائنة قرب نهر السن ، ولم تقع بها ضحايا .

ورأى الشيخ ان من الحكمة إرسال بعض المجاهدين لاشغال الفرنسيين في الجنوب ؛ حتى يخف الضغط الفرنسي على إخوانهم في الشمال . وهناك دارت معارك شديدة ، اهمها :

واقعة الدويلية

في ٢٣ ك٢/ ٩٢١ نشبت معركة صغيرة في قرية (الدويلية) الكائنة في الشمال الغربي من (القدموس) بين عشيرة مجاهدين ، وكتيبة من الجيش الفرنسي ، معها بعض الاسماعيليين . واستأسد المجاهدون ، رغم قلة عددهم ، ووفرة خصومهم ، فاستطاعوا أن يجلوهم عن القرية ، بعد أن قتل منهم مجاهد ، وجرح آخر . وبعد أن كبدوا الفرنسيين خسارة ستة جنود ، وعدد من الجرحى .

وقعة الدعيس

وفي ذلك المساء جاءتهم الاخبار ان كتائب افرنسية ستمر في طريقها من بانياس الى (القدموس) . فكمنوا لها عند قرية (بارمايا) ، الكائنة في الجهة الشرقية من مدينة بانياس . وبيناهم مرابطون هناك إذ بلغهم أن بعض اخوانهم محاصرون في (قلع الدريكية)، الواقعة بالقرب من

قرية « الديس » ، فهرع المجاهدون الى ذلك المكان ، وإذا (بالقلع) على رابية تشرف على أرض منبسطة من جهة الشرق ، وسلسلة هضاب مرتفعة مكسوة بالأشجار ، وكان لابد للمجاهدين ان يلجوا تلك الارض المكشوفة قبل الوصول إلى [القلع] . فأقدموا على ذلك ، وكانت مغامرة خطرة وشاقة وصب الفرنسيون عليهم النار ، وهم ما يزالون في العراء ، فثار ثائر المجاهدين ، وارتدوا إلى الوراء يعتصمون بالصخور المنيعة التي تحيط بذلك الوادي الفسيح وشجع ذلك اخوانهم المحاصرين ، فخرجوا من (القلع) ، وانضموا الى اخوانهم ، وحينئذ اخلى « القلع » ، فانتهت المعركة بذلك ، بعد أن قتل سبعة من المجاهدين ، وأبيد عدد من الاعداء . وقد اظهر عباس حبيب من قرية « الاندروسة » بطولة نادرة المثال في هذه المعركة .

معركة راس ماسم

ولما علم الفرنسيون باشتداد الحال، وأدركوا خطورة الموقف في الشمال، حاولوا الزحف الى « جبال الدراب » ، واحتلال جبل « راس ماسم » في ١٥ كانون اول ٩٢١ . وكان المجاهدون اسرع منهم بالوصول الى ذلك الجبل ، فاحتلوه وتحصنوا به ، وبدأوا يصبون النار على المهاجمين الذين

أعيتهم الحيلة ، فاضطروا للانكفاء الى هضبة « كلبو » — « قصابين » حيث احاطوها بسور عسكري ، وحفروا في جوانبها الاستحكامات .

معارك « البودي »

اسميناها معارك بالنظر لتشعبها و كثرتها ووقوعها في عدة مناطق في النصف الاول من شهر كانون ثاني ١٩٢١ بعد ان فشل الفرنسيون في احتلال « راس ماسم » والاستقرار فيه ، عمدوا الى الهجوم ، على « القراحلة الشمالية » وهم في ارغاء وازباد ، بعد تلك الانكسارات المتتابعة المتوالية .

واختاروا اول الامر ، الطرق المؤدية الى قرية « عين شقاق » ، تقصد الالتفاف على المنطقة الآنفة الذكر . ولم يتح لهم التمركز طويلاً في ذلك المكان ، إذ أن المقدم « ابراهيم صالح » ـ البودي ـ قدعاجلهم بهجوم مفاجيء مع عبد الهادي العباس وبعض المجاهدين الاقوياء . وكان لعنصر المفاجأة أثر كبير في التغلب على الحملة الفرنسية ، ومصادرة ما تحمله من عتاد وسلاح . ومن جملة السلاح المصادر مدفع كبير صالح للاستعمال .

ولكن المجاهدين لم ينتفعوا به لأنهم لم يكونوا يحسنون الاستعمال البنادق العادية فبقي بأيدي المجاهدين الى آخر الثورة حيث صادره الفرنسيون مع اسلحة الميدان التي غنمها المجاهدون في مختلف المعارك .

وقد ربع الفرنسيون لهذه الهزيمة ، يمنى بها جيشهم ، وهم في مستهل حملة جديدة ، على تلك الجهات ،فسيروا كتائب فرنسية اخذت تسلك نفس الطريق التي سلكتها سابقاتها ، وقد تمكنت هذه الحملة القوية من احتلال « عين شقاق » واجتيازها ، ومتابعة المسير ، إلى قرية « البودي » ، مدار الحركات الثورية في تلك الجهات .

وهناك في الهضبة المسماة « ضهر المزرعة » ، والكائنة شرقي « عين شقاق » قابلهم العقيد « ابراهيم صالح » وعبد الهادي عباس وبرفقتهما كثير من المجاهدين واستبسل الفريقان ،وتشبث كل منهما بمكانه لا يتزحزح عنه ، وبالرغم من تعرضه لاشد الاخطار . ولكن نجدات كبيرة قد هبطت من القرى المجاورة لمعونة الثوار ، واستطاعت ان تحدث ثغرة عميقة في صفوف الاعداء ، مما ارغم هؤلاء على الانسحاب الى « جبلة » بعد ان تركوا وراءهم عدداً من القتلى دفنوا في قرية « عين شقاق » نفسها وبالقرب من بيت الفقيد المرحوم « نصور الحسن » .

وادرك الفرنسيون بعد هاتين الموقعتين ، والفشل الذريع الذي منوا به انه من غير الممكن احتلال « البودي » من الأمام . فسيروا

جحافلهم الى « القرداحة » بغية النفاذ منها ، إلى « البودي » من الشرق والشمال. وقد لقيت هذه الحملة ، مقاومة عنيدة من ابطال « الكلبية » المغاوير ، الذين اقاموا في وجوهها سداً منيعاً من البطولة ، والرجولة ، والاقدام. ولكن ضغط العدو المتواصل ، وكثرة الجيش الزاحف ، ووفرة مالديه من عتاد ، وسهولة المواصلات في تلك الجهات ، مكنت العدو من احتلال« القرداحة » والتنكيل باحرارها الميامين.

وفوجئ سكان [البودي] باحتلال الجيش الفرنسي ، موقع كتف البير ، ولم يشعروا إلا بالقنابل تتساقط عليهم ، من ذلك الموقع تساقُطَ المطر.

فهب « ابراهيم صالح » ورفاقه الابطال ، وتصدوا لتلك الحملة القوية ، بكل ما اوتوه من ضروب البطولة والشراسة والعناد. وكانت كرتهم على الفرنسيين من العنف بحيث ارغمت هؤلاء ، على استعمال الحيل الحربية ، والمكر ، والخداع ،فتظاهروا بالتراجع،تاركين وراءهم بعض الجنود يختبئون وراء الصخور والادغال. وتريث المجاهدون قبل اللحاق بهم ، وما طلع الفجر حتى وجدوا انفسهم ، وقد ارتدت عليهم تلك الكتائب المتراجعة ، وحاصرتهم من جميع الجهات ، وحالت بينهم وبين الرجوع الى قرية « البودي » التي احتلها الفرنسيون،واشعلوا فيها النار.

وجُنَّ المجاهدون ، وهم يبصرون السنة للهيب تتصاعد من مساقط رؤوسهم ، ودير سكناهم ، وفقدوا الصبر والاتزان ، وانقضوا على الفرنسيين الحائلين بينهم وبين « البودي » . وهنا دارت معركة عنيفة طاغية ، استعمل فيها السلاح الابيض ، وتضاءلت بطولة السلاح امام بطولة الرجال ، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى كان الفرنسيون قد اندحروا أسوأ اندحار ، وانكسروا شر انكسار . تاركين وراءهم عدداً كبيراً من قتلاهم وجرحاهم .

وقد استشهد في هذه المعركة (محمد اسعد دوبا) — البودي — و (صالح عمران يوسف) من قرية « العرقوب » و (حسن سليمان يوسف) — البودي — ، وغيرهم كثيرون .

وقعة الأجرد وراس ملوخ

بعد انخذال الفرنسيين في معركة « البودي » وما جرَّه ذلك عليهم من سوء السمعة ، وفقدان الثقة ، واضطراب الصفوف ، عمدوا إلى حشد قوات كبيرة في مدينة جبلة ، كانت متمركزة من وقت غير قصير . ثم بدأوا الزحف في جيش عرمرم مجهز بكل وسائل

الهجوم ، تخفره الطائرات ، وتحميه المدافع والدبابات ، وكان ذلك في ٢٠ كانون الثاني ٩٢١ ، وكانت وجهتهم قرية « بشراغي » عاصمة الثورة في الشمال . وقبل ان يصعدوا على التلال المرتفعة ، فوق تلك السهول المنبسطة ، عاجلهم الشيخ بالهجوم . وهنا بدأت اعنف معركة في جبهة الشمال . تكافأ بها الاستبسال ، وكثر الاصطدام ، وظهر عناد الفرنسيين واستماتتهم في الهجوم والدفاع . وكان الشيخ ورجاله يحتلون منذ يومين المرتفعات ذات الموقع (الستراتيجي) الهام ، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين فداحة الخسائر التي نكبوا بها ، ولولا ان وفدت لنجدتهم كتائب من المجاهدين آخر النهار ، من خرائب سالم ، وبشراغي ، والقرى المجاورة ، لحلت بالمجاهدين كارثة أدت بهم إلى مصير وخيم . وكان لوصول هذه النجدة في الوقت الملائم تأثير كبير على سير المعركة ، وكان بمثابة ضغط مباشر قوي على جيش العدو ، فاضطر مرغماً على التراجع والانسحاب ، بعد ما مُني بخسائر فادحة في الأموال والأرواح وقد خسر المجاهدون مجاهداً كبيراً ، وقائداً من خيرة قوادهم المحنكين ، وهو الشيخ احمد عبد الحميد الذي نوّه عنه قائد الثورة ، الشيخ صالح في خطابه بعيد الجلاء ، كما استشهد ابن عمه خليل محمد ، وعلي وطيفه ، وسليم نيوف وحمود محمود ، ومجاهدون آخرون . وجرح كثير من المجاهدين ، واصطبغت تلك البطاح بلون الدم القاني ، حتى اصبحت ، وكأنها قبور

منبوش عظامها ، وليست اراضي معدة للاستغلال وخسر الفرنسيون في هذه المعركة — كل ماكانوا يحملونه من متاع وسلاح .

الاتصال مع هنانو

في ١٠ شباط ٩٢١ اتصل المجاهد المعروف الشيخ حبيب محمود بالمغفور له ابراهيم هنانو في نواحي « مرعش » ، واطلعه على كل مايتعلق بالثورة من حوادث وتفاصيل ، واظهر له حاجة الثورة ؛ الى المعدات ، والذخائر ، والاسلحة الحربية المختلفة الأنواع . كما اطلعه على رغبة الشيخ بايفاد ضباط محنكين ، مخلصين ، يساعدونه بقيادة الثورة في مجاهل الجبل المختلفة ، ويضطلعون معه باعباء الدفاع عن بعض الجهات بعدماتشعبت جبهاتها ، واتسع نطاقها ، وكثرت مواقعها .

وعاد الشيخ حبيب من لدن الزعيم هنانو ، وبصحبته اربعة ضباط ونفسه مغمورة بالثقة ، وطافحة بالاطمئنان ، فقد لقي من الزعيم كل حفاوة وترحاب ، ورأي وسمع كل عواطف التأييد والتشجيع ، ووُعد بالمساعدات المستمرة الدائمة ، وبانجاد الثورة بالذخيرة والعتاد ، وهي في تلكم الايام احوج ماتكون اليه ، واحرص ماتكون عليه ، وقد دامت

الاتصالات بعدئذ، بالزعيم هنانو واستمرت المراسلات، وكثرت من لدنه المساعدات، وكان للثورة التي قام بها في الشمال فضل كبير . على تخفيف الضغط عن الثائرين في الجنوب، وهكذا فقد كانت مساهمته للشيخ قد تعدت النطاق السياسي، والمادي، الى نطاق حربي، عملي ولا بد لنا من اطراء جهاد الشيخ حبيب محمود، والثناء عليه، فقد كان حركة دائمة لا تهدأ ولا تفتر . واليه يعود الفضل في المساعدات التي قدمت من الشمال، وقد لقي من الفرنسيين بعد انتهاء الثورة، كل عنت واضطهاد .

معركة قرفيص

واما الفرنسيون، بعد الخسائر التي منوا بها في معارك «البودي» وراس ماسم، وفتوح . فقد انسحبوا من الجبال، وعسكروا في السهول متخذين مراكزهم الرئيسية في قرية «البرجان و نبع السن»، ومتبعين أساليب «القرصنة» والعصابات، من هجمات متسللة، وأخرى متشعبة والقصد من ذلك كله، إما جس النبض، وإما إلهاء الثائرين، وإما الاحتفاظ بقاعدة الهجوم، تاركين للطائرات، ومدفعية الساحل. المجال

الرحب لمتابعة ضرب قواعد الثوار ، في الهضبات المشرفة على السهول وكانت الدوارع لا تبرح من البحر المحاذى لتلك الجهات ، والمقابل لتلك الاماكن ، التي تحتشد فيها الجيوش.

وفي ١ آذار ٩٢١ زحفت كتائب قوية عن طريق «عرب الملك» ، و «البرجان» لاحتلال «قرفيص» القرية الواقعة على هضبة مرتفعة ، في اعلى (نبع السن) . وهناك دارت رحى معركة رهيبة ، تدخل فيها الاسطول والطائرات والقوى الميكانيكية ، واستشهد فيها بعض المجاهدين . ابرزهم المرحوم «احمد عليا» وجرح كثيرون كان من جملتهم العقيد «يوسف عبيد» وقداسفرت هذه المعركة عن احتلال الفرنسيين «لقرفيص» بعد خسائر فادحة . نكب بها المحتلون ، ومما لا ريب فيه ان احتلال «قرفيص» قد شكل نقطة ارتكازية لجيش العدو . ومكنه من التحكم في جبهة الدفاع الجبلي ، الامر الذي كان له ابعد الاثر المادي والمعنوي عند الفرنسيين.

معركة جور البقر

وفي ١٥ آذار ٩٢١ زحف الفرنسيون على قرية «جور البقر» و(تل ايرس) من مركز (البرجان) فقابلهم المجاهدون بعنف شديد ، وسمروا

اقدامهم في الخنادق، ودافعوا عن مواقعهم دفاع المستميت، وقـد استمرت هذه المعركة حتى منتصف الليل، ثم انجلت عن اندحار العدو بعد خسائر فادحة، وعن استشهاد بعض المجاهدين، اخص بالذكر منهم المرحوم «علي فضل صارم»

غزوات الثوار

وادرك الثائرون ان المبادهة في الحروب لها شأن عظيم في الظفر والنجاح، وان الجيش المهاجم يكون اقوى معنوية من الجيش المدافع، مهما كان الاول ضعيفاً، ومهما كان الآخر قويا. كما قال علي: ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا. ولذلك فقد اقترح بعض رجال الثورة على الشيخ ان يسمح لهم بالهجوم على مراكز الجيش الساحليـة، واستخلاصها منهم، فنهاهم عن ذلك ونبههم الى عدم التعرض لتلك المواقع الحصينة، والمراكز المحاطة بالاسلاك الشائكة. وان امر احتلالها يتعذر على وسائلهم المحدودة؛ وامكانياتهم الضئيلة التي لا تتعدى البنـادق الحربية من مختلف الانواع. ولكن الشيخ اراد ان يتأهب لذلك، وان يحتاط له، فأمر المجاهدين بالتريث، ريثما تستكمل اسباب الهجوم، وتتوفر لديهم المعدات الحربية والذخائر المطلوبة.

ولما كان الشيخ دائم التجوال في مناطق الثورة ؛ للاشراف عليها بعدما وصلت اليه من فقدان الارتباط والانسجام، ومن زيادة الضغط وقوة الحصار، ومن نقص الذخائر والمعدات، فقد اغتنم العقداء : محمد عيسى، وعلي مفلح، ومرشد شيحا، غياب الشيخ في بعض الجهات، وجهزوا حملة قوية من المجاهدين، سارت تحت لواء الشيخ «علي عبدالحميد عيد»، من قرية [بشراغي]، متجهة شطر المراكز الفرنسية الساحلية وقسمت هذه الحملة إلى خمس فرق : اتجهت أولاها إلى مدينة «جبلة»، وكان يرأسها عبود مرشد. والثانية : إلى (البرجان)، وكان يرأسها محمد سلمان. والثالثة إلى « عرب الملك » ؛ وكان يرأسها محمد صالح عيد والرابعة إلى «قرفيص» ويرأسها علي حسن زينة. والخامسة: إلى «القاموع» ويرأسها جبور مفلح وقد اختاروا الليل للهجوم. ولكن العدوّ كان وكأنه على موعد معهم، فما أن اقتربوا منه حتى بدأ باطلاق النار، تعاونه مدفعية الشواطئ، وتعضده مدفعية البوارج. ولم يكن المجاهدون قد حسبوا حساب الاسلاك، التي علق اكثرهم بها، وكانوا يتخبطون للتخلص من تلك الاسلاك الدقيقة في تلك الارض المكشوفة، وهم معرضون لأشد الاخطار- الامر الذي مكّن العدو من إصابة أكثر المجاهدين فانكفأوا بعد أن تركوا وراءهم خمسة عشر قتيلاً وعدة اسرى، وجرحى كثيرين. وكان من بين الشهداء في «البرجان» البطل المشهور « عزيز

حربا » من قرية (جيبول) - جبلة - وسليمان محمد خليل .

وكان لذلك الفشل المريع تأثيره السلبي العنيف في صفوف المجاهدين وأوساط المؤيدين .

الموقف في الجبل

وأما موقف الثائرين في الجبال، فانه لم يطرأ عليه أي تغيير، أو تحويل، بل ظلت الجبهة الشمالية متماسكة العرى ، متحدة الخطى، منيعة الجانب، صعبة المنال . وعجز الجيش الفرنسي رغم وسائله الكثيرة عن احتلال الجبال، أو النفاذ اليها، وظلت جيوشه الزاخرة مرابطة في الساحل تحميها الدوارع ، وتخفرها الطائرات ، والثائرون كامنون على الهضاب ، وفي سفوح الجبال ، يترقبون ويتربصون ، ولكن « فكي الكماشة » من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، قد قاربا الالتقاء ، وأوشك أن يحصر الثائرون في نطاق - إذا اتسعت منه الجهات ، فقد تعذرت عليه طرق المواصلات .

تموين الثائرين

ولا غرو أن احتلال الشام، وحمص، وحلب، وحماه، وبقية المدن الداخلية والساحلية، كان ضربة قاسية على الثورة، وإيذاناً صريحاً باخمادها والقضاء عليها. فبعد أن كان فيصل - رحمه الله - يعونها بكل ماتحتاج اليه من مال وعتاد، أصبحت اليوم، وهي أحوج ماتكون إلى من يساعدها حتى ولو عن طريق المبيع. والشيخ يدفع من ماله الخاص أثماناً باهظة لتموينها، وهو بعد هـذا لا يستطيع الحصول عليه إلا بشق النفس، والتعرض لأشد الأخطار، وهكذا فقدت الثورة أهم سبب من أسباب منعتها، وبقائها، كما أن الجاسوسية قد نشطت في تعقب الثائرين، وإحصاء أنفاسهم، ومراقبة طرق استيرادهم للسلاح وقد نجحت تلك الجاسوسية المتقنة بمصادرة السلاح الذي كان قد استورده «محمد الارناؤوط» من لبنان وفلسطين، يحمله أربعة عشر جملاً، صودرت كلها في قرية «تل وعاوي» الكائنة جنوبي مدينة صافيتا، وسلمت إلى الفرنسيين، وتقدر أثمان هذه الذخيرة بمبلغ (٢٨٠٠) ليرة ذهبية، وقد كانت هذه المصادرة بمثابة اجهاز على الثورة، والقضاء عليها قضاء حاسماً سريعاً.

ولا ريب في أن الشيخ كان يلقى أشد الصعوبات ، وأعنفها، وأقساها في إيجاد الوسائل اللازمة لاستمرار الثورة ، والحئول دون انهائها على هذه الصورة من الفشل والخيبة .

وقد نشط رجال الخير من العلويين لمعونة إخوانهم المجاهدين، فكانت مساعداتهم تصل إلى الشيخ باستمرار، ولكنها لا تتعدّى النطاق المحدود الذي لم يكن يثمن ولا يغني من جوع .

وكان الفرنسيون في الآونة الاخيرة من حروبهم ، جدّ حذرين ألا يتركوا وراءهم سلاحاً ، والا يمكنوا الثائرين من الاستيلاء على شيء من الذخيرة والعتاد. حتى أنهم حينما يضطرون إلى ترك السلاح في الارض كانوا يعمدون إلى تخريبه، لئلا يستفيد منه المجاهدون . وقد عمل جنودهم بهذه التعليمات وكانوا حريصين على ألا يبقوا في ساح المعركة طلقة واحدة ولا ريب في أن هذا العمل كان ذا تأثير كبير على ضعف الثورة التي كانت تعتمد في تموينها على ماتصادره من الجيش الفرنسي نفسه .وذلك وحده كان يشكل قوة لايستهان بها - كما ألمعنا إليه في مستهل هذا الكتاب .

انسحاب الفرنسيين من كيليكيا

كان يقتضي السياق في سرد هذه الحوادث التاريخية، أن يتقدم هذا الموضوع عن هذا المكان. لأن حادث انسحاب الافرنسيين من كيليكيا كان قبل التاريخ المحدد آنفاً. ولكننا لجأنا الى تأخير هذا الموضوع لكي نجعله من الامور الحاسمة للثورة - وهو في حقيقة الواقع لا يتعدى هذا المعنى، ولا يخرج عنه في قليل او كثير.

وانه ليدرك بالبداهة ان الفرنسيين لا يمكن ان يلجأوا الى سحب قواتهم الكثيفة من تركيا الا بعد الضغط العنيف الذي كانوا يلاقونه من الثائرين العلويين. واهل الساحل السوري انفسهم مازالون يذكرون حتى الآن، أنهم كانوا يرون بام العين كيف تنزل البوارج الحربية الفرنسية بحارتها إلى اليابسة للاشتراك مع القوات البرية بالهجوم. وهذه الرؤية يحدثك عنها الكثيرون من ابناء اللاذقية الحاليين. ومعنى ذلك ان الجيش الفرنسي كان في ضائقة شديدة للرجال في الوقت الذي كانت قواته تحتل اماكن كثيرة من مختلف انحاء العالم، ويعهد اليها اخماد ثورات متواصلة في اكثر البلدان النائية الثائرة.

والجيش الفرنسي قد خرج من الحرب الكبرى منهوك القوى، مفكك الاوصال، يشكو نقصاً ظاهراً في فرقه ورجاله. وهذا النقص الظاهر، هو الذي أدّى بالقوات الفرنسية إلى الانسحاب من بعض الاماكن القايلة الاهمية لتعسكر في مناطق اكثر أهمية، ولتتوفر جهودها جميعاً على تهدئة الحال في بلد ثائر كبير.

ولما كانت الثورة الكمالية في إبان نشوبها واشتعالها؛ فقد اغتنمها الفرنسيون مناسبة صالحة للاتفاق مع مصطفى كمال على الانسحاب من كيليكيا، مقابل شروط تتعلق بالثورة وحدها، وعدم تمويلها بشيء من الذخائر والعتاد. ولم يكن ثمة بدّ للفرنسيين من الانسحاب، إن عاجلا او آجلا من بلاد الاتراك وذلك لظروف سياسية وعسكرية ودولية كبرى، وقد رأوا ان يكون ذلك الانسحاب في الوقت الملائم لفرض شروط الامتناع عن تموين الثائرين العلويين.

وان الانصاف للحقيقة يضطرنا لان نؤكد للقارئ الكريم ان الاتراك قد حاولوا اكثر من مرة ان يتصلوا بالشيخ، ويرسلوا له الضباط النظاميين لقيادة الثورة، ولكن الشيخ كان يرفض ان يشترك جنود في ثورة عربية خالصة، مخافة استغلالها من قبل تلك الدولة المعادية لكل من هو عربي.

على ان المقول ان السلاح الذي كان يرد من قبل المغفور له الزعيم

هنانو، انما كان يستورده من الاتراك. ويظهر ان في هذا القول شيئاً من الصواب. اذ ان الامدادات قد انقطعت بصورة تامة بعد انسحاب الافرنسيين، واتفاقهم مع الاتراك. وهذا مايفسر لنا تفسيرا واضحاً مدى الاهمية الكبرى التي علقها الفرنسيون على ذلك الاتفاق، والذي كان ذا تأثير كبير على الثورة، لا ينكره مطلع على احوالها في ذلك الحين

ولم يكن الشيخ على علم بحركة اتفاق الفرنسيين والاتراك، الامر الذي جري بمنتهى الصمت والكتمان. ولما بدأ الجيش الفرنسي بالانسحاب من كيليكيا ركدت الجبهة قليلا، وخيل إلى البسطاء من الناس، أن الفرنسيين ينسحبون من الساحل السوري. ولم يحارب الشيخ هذه الفكرة – مع ثقته ببطلانها – وإنما حاول استغلالها لتقوية معنويات المجاهدين. ولم تكن ميزانية الذخيرة في جيش المجاهدين تتحمل قيامهم بهجوم عنيف، ولذلك فقد استفادت قيادتهم من فرصة الركود لجلب الامدادات والاستحصال على العتاد.

ومما لا ينكر أن مثل هذه الحال من الركود؛ تغرق اعظم جيوش العالم في لجة الكسل والخمول، حتى أن القيادة الحصيفة في البلدان العسكرية الراقية تعمد إلى المناورات كوسيلة لمحاربة الكسل، أو إلى وسائل من شأنها إبقاء الجيش في حالة التأهب والترقب، والانتظار، والعيش في غمرة الفكر العسكرية والروح العسكرية البحتة. وبالطبع فان مثل هذه

الوسائل غير متوفرة لدى قيادة ثورة محصورة في نطاق جبلي معين.

أجل: لقد كان لأخبار انسحاب الفرنسيين صدى عميق في نفوس الثائرين، خارت له القوى، وانحطت العزائم، واستسلم إلى ما يستسلم إليه الجيش المسالم عادة من لذة الكسل والخمول. ولم يمض عليهم وقت طويل حتى اطبقت عليهم القوى من جميع الجهات.

وهكذا افتضحت المناورة، وانكشف السر.

معسكرات الجيش الفرنسي

وفي تلك الأثناء كان الجيش الفرنسي قد أكمل تأهبه للهجوم النهائي، وحشد قواته الميكانيكية الهائلة في الامكنة التي كانت تحيط بمناطق الثورة، من جميع الجهات، فمن جسر الشغور، إلى اللاذقية، إلى جبلة، فبانياس فطرطوس، فصافيتا فمصياف، كل هذه الامكنة كانت تحتشد بها قوى كبيرة هائلة، وذلك فضلاً عن الاماكن التي كان يحتلها الجيش في قلب الجبل، والتي كانت تشكل نقطة ارتكاز هامة في تلك المناطق الحصينة.

وحرص الفرنسيون أكثر ما حرصوا على ان تحتشد قواتهم الرئيسية

في الاماكن المؤدية إلى منافذ الجبال، ومسارب الوديان، وهم يرمون من وراء ذلك كله، إلى أن تنطلق تلك القوى الكثيفة باسرها في لحظة واحدة مستهدفة مناطق الثوار.

ولم يألُ الفرنسيون جهداً في اعتقال جميع الاشخاص المشتبه أن لهم علاقة مع الشيخ، او اتصالا مباشراً أو غير مباشر مع الثائرين. وأن يحتفظوا بهؤلاء جميعاً في ثكناتهم العسكرية. كرهائن يتخذون منها وسيلة قوية لتثبيط هممم الآخرين، وكان الفرنسيون حراصاً على ان يظهروا هذه الرهائن في الامكنة التي يحشدونهم بها، وعلى أن يمكنوهم من الاتصال بالناس لتثبيط هممهم كما أسلفنا.

معنوية الأهلين

ولا بد لنا من أن نلمح تلميحاً عابراً سريعاً، إلى حال الاهلين في الجبل العلوي، وأن نلم، ولو إلمامة خاطفة، باحوالهم النفسية والمادية، بعد مضي ثلاث سنوات ونصف على الثورة، وأنه مامن شك ولاريب في أن ثورة كبرى كثورة الشيخ، تستغرق هذه المدة الطويلة الطافحة بجسيم الاعمال، وفادح الخسائر، وكبير الصعوبات، في مثل هذه البيئة

الساذجة ، وفي مثل هذه الارض القاحلة الجرداء . أجل لاريب في أن ثورة كتلك الثورة الملتهبة تضطرم نيرانها المشتعلة في هذه البقعة من الارض، يحتشد فيها السكان بكثافة لا مثيل لها في اكثر بقاع العالم. ومعنى ذلك ان الاهلين مضطرون لاستجلاب وسائل معيشتهم الاولية والضرورية من خارج الجبل، وبالنظر لأن حصار هذا الجبل كان قوياً جداً وشديداً جداً، فقد سدت ابواب الحياة في وجوه سكانه الكثيرين، ومع ذلك فقد تحمل العلويون بصبر وثبات عجيبين هذا الحصار المادي، وما انتجه من ضائقة كانت تودي بحياة الكثيرين .

من ذلك كله ندرك ان حالة السكان النفسية لم تكن آخر الامر كما كانت عليه في أوله ، وليس ذلك مما يعيب أو يشين ، فان التاريخ نفسه يحدثنا أن مثل هذا الضغط الحربي والمادي، يؤثر تأثيراً قوياً على نفوس السكان ، وان اكثر الشعوب صبراً وجلداً وذوباناً في سبيل فكرتها القومية ، لا تستطيع تحمل أمثال ما تحمله العلويون من أعباء جسام ، ومصاعب جمة ، في غضون هذه المدة الطويلة .

وما نريد أن نقول هنا، أن الخلق الحربي قد تبدل في نفوس الثائرين ومناصريهم ، ولا أن الحماس قد خف عند هؤلاء ، ولكننا نريد القول أن التعب والضنك والفاقة ، قد كان لها إبان الهجوم الاخير تأثير كبير على نفسية العلويين ، الأمر الذي سهل بعض الشيء مهمة الهاجمين .

الهجوم النهائي

كان ذلك في ١٥ حزيران سنة ١٩٢١ حينما هجم الجنرال « نيجر » بجيوشه الجرارة الهائلة ، وقذف بها في مختلف أنحاء الجبل وجعل أهدافها جميعاً ، الالتقاء في معقل الشيخ الحصين .

وتدفقت الجيوش الفرنسية من سائر المسارب والمنعطفات ، كما يتدفق السيل الجارف من أعالي الجبال .

وابتدأت هذه الجيوش بالتدفق من « قرفاص » إلى « الدراب » إلى « بشراغي » إلى « بسماخ » إلى « عقبة الزرازر » إلى « وادي جهنم » إلى « الحيلونة » إلى « جبل النبي صالح » إلى « جبل النبي متى » وفي جبهة طولها عشرات الكيلومترات .

وفقدت قيادة المجاهدين إشرافها المباشر على المعارك ، وأفلت من يديها أمر الرقابة على تسيير الجبهات ، ومواقع القتال ، وأصبحت كل فئة من المجاهدين تعمل مستقلة عن الاخرى ، وهي تستوحي طرق القتال من تفكيرها الخاص ، وتوجيهها الخاص ، الأمر الذي يسهل على بعض المرجفين والمتآمرين كيفية استغلال الفرصة لتثبيط همم المجاهدين ، وهم

في معزل عن قائدهم الشيخ وعن رفاقهم البواسل ونشطت حركة هؤلاء بين أوساط المجاهدين نشاطاً كبيراً، ومما يؤسف له انهم قد توفقوا بالتأثير على بعض الانهزاميين، وحملهم على إلقاء السلاح.

حاجة المجاهدين الى السلاح

وفي تلك الآونة الحرجة، نضب معين السلاح، وفقد فقداناً تاماً من أيدي المجاهدين. وكان لتعذر المواصلات مع بعضهم أثر كبير في هذا الفقدان، على أن المجاهدين ظلوا يعللون أنفسهم بالآمال ان «محمد الارناؤوط» قادم اليهم في قافلة كبيرة محملة أعتدة وذخائر.

وثبتوا أياماً يقاومون ببسالة كأنها المستحيل، ولكن البسالة والجلد لا يغنيان شيئاً عن السلاح في مثل هذه الحرب الضروس.

وما قدمت أخبار (محمد الارناؤوط) ومصادرة سلاحه كما مر حتى خارت عزائم المجاهدين، وانحطت قواهم وتفرقوا هنا وهناك، يتخبطون في دياجير حالكة من اليأس، وأجواء قاتمة من الالم.

انتهاء الثورة

إن الثورة لم تنته دفعة واحدة ، في جميع الاماكن بل ان كتائب من المجاهدين ظلت تقاتل لوحدها، حتى آخر مافي ايديها من الطلقات، والفرق التي تحتفظ بمقادير اكثر من الذخيرة والعتاد ، فانها ظلت تحارب بعد أن سلـَّم من حولها من الكتائب إلى النهاية . ومعنى ذلك أن روح الثورة وفكرة الجهاد كانتا متأصلتين في نفوس المجاهدين،حتى أن أحداً منهم لم يستسلم إلا بعد أن نفدت من أمامه الذخيرة،وغاضت في نفسه الآمال، ولم يطل الامر على بدء الهجوم الكبير، وتشعب القتال في سائر مناطق الجبل، حتى كانت الذخيرة قد نضبت، فاضطر المجاهدون للتسليم ، وخيّم على هذه الجبال أشباح مرعبة فيها الكثير من فقـدان العزّة ، وكبت العاطفة ، وشقاء الضمير .

وهكذا انتهت تلك الثورة الجبارة الصاخبة وانطوت بانتهائها صفحة مجيدة من صحائف المجد والجهاد والخلود .

الانتقام من السكان

ما عرف التاريخ القديم والحديث ، وما أحسب انه سيعرف ، أمة اكثر همجية ، ولا أعظم وحشية ، ولا أشرس طباعاً ، من الفرنسيين، حين ينتصرون، وحين ينتقمون، والانتقام بعد النصر ، صفة من صفات الحيوان ، وليست من صفات الانسان؛ فان الرجل الشريف يترفع عن الاساءة إلى خصمه ، بعد أن يهزمه ، ويتغلب عليه ، ولكن الفرنسيين يزدادون وحشية وهمجية بعد الانتصار، ويعمدون إلى وسائل تحط من قيَم البشر وتدنى بهم إلى أسفل درك الانحطاط !

وإلا ... فما هو ذنب النسوة ؟ وما هو ذنب الاطفال ؟ ماهو ذنب الآمنين الوادعين، الذين لم يحركوا ساكناً، ولم يقوموا بأي عمل حربي أو سياسي ؟!

بل ماهو ذنب المدافعين عن كرامتهم ، والذائدين عن حياض بلادهم والواضعين أنفسهم وأموالهم لخدمة عقائدهم، والانتصار لمبادئهم ؟!

وهل يعتبرون مجرمين وخائنين، أولئك الذين يدافعون عن بلادهم، في بلادهم ، ولا يعتبر خونة اولئك الذين يحاربون الناس في بلاد الناس ،

هؤلاء حقهم في الاعتداء مشروع؛ واولئك حقهم في الدفاع غير مشروع؟؟

وإذا كانت فرنسا ترى في دفاع السوريين عن بلادهم جريمة حمقاء، وخروجاً على قواعد العدل الدولي، فلماذا لم ترَ في محاربتها للهاجمين الالمان ومقاومتها لهم تلك الجريمة، وذلك الخروج. أما أن للقوة منطقاً يحل لها ما يحرمه على الناس!

اللهم أنه لمن سخط الاقدار، أن يكون بين الناس ظالمون، ومظلومون، وحاكمون، ومحكومون، ومستعمِرون، ومستعمَرون؟!

واللهم انه لمن سخط الاقدار، أن تتولى أمورنا حقبة طويلة من الزمن، دولة رعناء كفرنسا، لا تفهم الحقوق، ولا تقدر الواجبات؛ ولا تتكلم إلا بغير لغة الضمير والوجدان.

رجال آمنون، ونساء آمنات! استباح الجيش الفرنسي الدخيل، بعد انتهاء الثورة الكبرى، حرمة أمنهم، فاعملوا بهم تنكيلاً وتقتيلاً وعاملوهم شر معاملة يعامل بها انسان من حيوان! فنهبوا قراهم، ثم أحرقوها! وعذبوا أجسادهم، ثم أعدموها! وتفننوا في الاذى، وضروب الانتقام، ما شاء لهم التفنن والانتقام!

وعادَ الناس بافكارهم القهقرى، يذكرون سنيهم الثلاث والنصف تحت قيادة شيخهم الجليل، فاذا بهم وقد كانوا في الحروب سعداء، أعزّاء، وفي السلم أشقياء، أذلاء.

وكذبت أساطير المتقدمين والمتأخرين ، فليس العلم والحضارة صنوين متآخيين لا يفترقان ، بل إن الاستعمار والوحشية هما الصنوان اللذان لا يفترقان . وخجل التاريخ ، وندي جبينه من فظائع الافرنسيين في جبال العلويين ، وأما الشرف والكرامة فانهما لم يخجلا عن فرنسا ، لأنهما لم يعرفا فرنسا .

أين الشيخ ؟

ولقد منّى الفرنسيون انفسهم بالقبض على الشيخ ، فاحاطوا بعرينه الحصين من جميع الجهات وهم لا يجرؤون على ولوجه ، حتى ولا الاقتراب منه.

ودامت الحال اياماً ، واذا بالاخبار تردهم ان الشيخ في غير هذا المكان ، وكانت صدمة عنيفة استشاطت لها نفوسهم غيظاً ، واضطربت لها ألماً ، وأيقنوا ان النهاية لن تكون الا بعد القبض على القائد الاول ، والبطل الاول ، والمجاهد الاول ، ونشطت جواسيسهم هنا وهناك ، وتسربت الاموال في كل جهة ؛ وكل مكان ، وكثر الوعد والوعيد ، والرجاء والتهديد ، ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً ، فان الشيخ مازال في

مكان مجهول ، يتهيأ للثورة ، ويتأهب للقتال ، واستولى على مخيلاتهم هذا الشعور المخيف .

وبقيت تلك الجيوش الجرارة معسكرة في الجبال ، تشق الطرق ، وتبني الثكنات ، وتحتل المرتفعات ، وتوزع الجنود في كل مكان ، وما دام الشيخ في مكان مجهول ، لا يهتدي اليه الفكر ، ولا تناله الايدي ، فان الفرنسيين سيظلون في حركة دائمة ، وقلق عظيم .

الحكم على الشيخ بالاعدام

ولما فشل الافونسيون بالقاء القبض على الشيخ ، التأمت محكمتهم العسكرية برآسة الجنرال « غورو » وقررت الحكم عليه بالاعدام ، وذكرت في حيثيات الحكم : انه قام بثورة عنيفة ادّت الى قتل الكثيرين من جنود الفرنسيين . ثم اذاعوا هذا الحكم في مناشير كانت تلقيها الطائرات في كل مكان مأهول وغير مأهول .

ولم تمضي ايام ، حتى طبقت الجبل العلوي من ادناه الى اقصاه ، اخبار الحكم باعدام الشيخ صالح فامسك الناس قلوبهم بايديهم ، واستولى عليهم الرعب والذعر ، والهلع والقلق على حياة شيخهم ومجاهدهم

وقائد ثورتهم الصاخبة . وود كل مخلص ان يكون بيته ملاذ الشيخ ليخفيه عن اعين الاعداء والمتجسسين ولو أدى الامر بصاحبه الى التضحية بنفسه ، وذويه . وهل ثمة ماهو أعز على المخلصين من حياة الشيخ ؟.

وهل ثمة أمنية أحب إلى النفوس من أن يضحي صاحبها بروحه لأجل الشيخ ، وصيانة الشيخ ، وخدمة الشيخ ؟ .

وهل ثمة من يبخل بدمه في سبيل المجاهد الاول ، والقائد الاول ، والبطل الأول ؟ .

اللهم : لا .

اختفاء الشيخ

ولكن الشيخ في مكان لايحصيه الفكر ، ولا ينفذ إليه البصر . بل انه في مكان غير مستقر ، وغير معروف . يدأب على التنقل من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا . حتى أصبح في مأمن من معرفة الناس له واشتباههم به ، وحتى أصبح منظره يشتكل على أقرب الناس اليه ، ويلتبس حتى على أعزهم عليه ، واخلصهم لديه .

وقد صدف مرات عديدة أن التقى به جنود فرنسيون في أمكنة

مختلفة ، من مناطق الثورة ، وكانت سرعة خاطره ، ورباطة جأشه، سبباً في خلاصه ، ونجاته .

حدثنا الشيخ : أنه أقام على (جبل الشيخ حيدر الضهر) أياماً يختبئ وراء صخوره المنيعة ، واشجاره الكثيفة ؛ وانه علم في صبيحة أحد الايام أن كتائب فرنسية هائلة تحيط بالجبل من جهاته الاربع . وانه لم يعد هناك أمل بالنجاة ، مهما تعددت المسالك ، ومهما تنوعت السبل، وان الفرنسيين على علم بوجوده في ذلك الجبل ، فساقوا اليه هذه القوى الكبيرة المخفورة بالميكانيك حذراً من المفاجآت .

وتوضأ الشيخ وصلى ، ثم سلك الطريق الرئيسية المؤدية إلى قرية قريبة من الجبل ، وباده الجند بالسلام من بعيد . وسألهم : ماذا تعملون هنا يا إخوان ؟ فأجابوه : لقد بلغنا أن الشيخ مختبئ في هذا الجبل، فجئنا للقبض عليه ، ومقاضاته الحساب . فقال لهم : كلنا نبحث عن الشيخ ، والذي يتوفق منا يكون أسعد حظاً من الجميع . ثم تركهم ومشى، فلم يعترضه أحد . والفضل في ذلك يعود إلى رباطة جأشه، وسرعة خاطره، ومبادهتهم بالحديث ، وهذا لعمري منتهى الاقدام .

وحدثنا الشيخ : أنه كان يسير مرة على طريق ، وأنه شاهد حركة غير عادية تلوح من نجوات ذلك الوادي السحيق ، ولم يكن ثمة مجال للرجوع ، فقد خلف وراءه اشخاصاً مدنيين يشتبه بهم ، ويظهر انهم

يحصون على المارة الانفاس . فأمر خادمه أن يتقدمه في تلك الطريق ، وأن يظهر أمام الجند بمظهر البساطة ، والسذاجة ، والخوف ، وتقدم الخادم ، فأوقفه الجنود ، وتجمهروا حوله ، وتعرض المسكين لما يتعرض له المساكين عادة ، من أولئك الزبانية القساة — من التحقير ، والتصغير والشتم ، واللطم ، وهو يستغيث بهم ، ويرتعش من الالم والخوف .

ووصل الشيخ ، فصاح بهم : ماذا تعملون بهذا الفقير ؟ فأجابوه « هذا من بدوان صالح » . فضحك الشيخ بملء فيه ، وقال لهم : ما أشد جنونكم أمن المعقول ان يقتني الشيخ صالح جنوده من أمثال هؤلاء المساكين . وهل يتركهم يمشون في الطرقات منفردين ؟!

واختلف الجنود فيما بينهم من مصدق هذا الكلام ، ومكذب له ، وأزداد الصراخ والتطاحن ، فاغتنم الشيخ وخادمه هذه الفرصة ، وتابعا المسير .

وحدثنا ايضا : انه حضر صلاة الجمعة في مسجد « بيت الشيخ يونس » وسمع الخطيب بعد الانتهاء من خطبة الجمعة يقول : « اللهم انصر عبدك ، وابن عبدك ، المعتز بعفوك وجندك ، المجاهد في سبيل الله والوطن ، الشيخ صالح العلي سلمان ، واحمه من كيد الكائدين ، وبطش الظالمين ، يارب العالمين » .

فبكى الشيخ حتى بلل لحيته الشابة ، وغادر المسجد قبل ان يشعر

بأمره احد.

وبلغه يوما ان مقام والده في « الشيخ بدر » بحاجة الى أغطية، وان ضريحه بحاجة الى كساء. فقر رأيه أن يجلب له الكساء اللازم ويحضر بنفسه لزيارته مهما اعترضه في سبيل ذلك من المتاعب والصعوبات. واقدم على تلك المغامرة الخطرة بدون خوف ولا وجل، وأمعن في التنكر امعانا شديدا، واقترب من المقام الشريف بصفة زائر، فلم يعترضه أحد. وهناك توضأ، ثم صلى، ثم اشرف بعد الصلاة على بيوته التي احتلها الجند، وقد غدت خرائب وانقاضا. وراعه هذا المشهد المؤلم، فالجيش موزع في كل مكان. في المرتفعات، والوديان والطرقات وفي القرى يطرد ابناءها، لكي يحل محلهم في سكنى البيوت. ثم قلّب البصر في مسالك تلك الجبال، وقنهما الشماء. فاذا بها وكأنها ثكنة عسكرية متصلة الحلقات متماسكة الاجزاء.

وآلم الشيخ هذا المنظر الرهيب. وداخله شعور الخوف على حياة رجاله المخلصين، وجنوده المشردين، واوشك اكثر من مرة ان يسلم نفسه فيريح ويستريح.

ولكن النفوس المفطورة على العزة تأبي الخنوع، وترفض الخضوع وما نفس الشيخ الا من تلك النفوس الكبيرة التي لا تسكت على ضيم. ولا تعترف بذل.

فنحّى فكرة التسليم عن رأسه . وصمم على المسير ، والاختفاء .

قلق الفرنسيين

ودام اختفاء الشيخ سنـة كاملة ، والفرنسيون يجـدون في اثره ، ويتعقبون خطاه ، وهم في حيرة دائمة من هـذا الاختفـاء الذي يبعث القلق ، ويضاعف الخوف . وجنودهم تملأ الجبل العلوي من ادناه الى اقصاه ، وتتحمل الحكومة الفرنسية من جراء ذلك نفقات احتـلال ترهق خزينتها المتعبة - بالوقت الذي تتخبط فيه البلاد الفرنسية في فوضى اقتصادية اقلقت الحكومات المتتابعة ، وهددت البلاد بثورة عنيفة جامحة .

وقلب الفرنسيون الأمر من جميـع وجوهه ، فوجدوا انهم لا يستطيعون تخفيض جيش الاحتلال ، الا اذا ارادوا التخلي نهائيا عن تلك الجبال . ووجدوا انه من المستحيل ابقاء ذلك الجيش المحتل الذي ينكب ميزانية الدولة بخسائر فادحة لا نهـاية لها . فهم غير امناء على مراكزهم ، ما دام الشيخ بعيدا عن متناول ايديهم ؛ يتأهب للنـزال ويستعد للنضال .

ونشطت جاسوسيتهم نشاطًا عجيبا ، وبذرت الاموال هنا وهناك ولكن بلا طائل ؛ وبدون جدوى .

العفو عن الشيخ

ولما عجز الفرنسيون عن اعتقال الشيخ ، وعموا عن الاهتداء الى مقره ، والوصول اليه . مع ان الاخبار المتواترة ،تثبت لهم ، وتؤكد، أن الشيخ لايزال في الجبل ، وأنه يحصي على جنودهم الانفاس .

أجل : لما عجز الفرنسيون عن اعتقال الشيخ ، ووجدوا أن لا طاقة لهم بالاستمرار على هذه الحال ، أيقنوا أن لامندوحة لهم عن إصدار العفو عنه ؛ وإذاعة قرار العفو بواسطة الطائرات ، كما أذيعت من قبل قرارات الاعدام .

واننا نذكر كلمة « العفو » ، ونفوسنا تتنزى ألماً وحزناً ، فالشيخ من غير الجناة ، وهذه الكلمة الآثمة لاتستعمل الابحق المجرمين الجانين . ولكنه تعبير اصطلح عليه ، ونحن مضطرون لاستعماله كما ورد في تلكم القرارات .

وحلّقت الطائرات في سماء الجبل العلوي ، تقذف من جوفها مناشير تحمل قرار العفو عن الشيخ . وتحمل توقيع «الجنرال غورو »، وهو يقسم بشرفه العسكري ، انه لن ينال الشيخ باذىً ، ولن يمسه

بسوء. وأسرع الناس الى قراءة تلك المناشير، والدمعة في عيونهم، والخفقة في قلوبهم. ولم تمض ساعات حتى طبق ذلك النبأ الجبل العلوي، من ادناه، الى أقصاه.

موقف الشيخ

وبلغت الشيخ أنباء العفو المذاعة، وهو يومئذ في قرية «بشراغي» عاصمة الثورة في الشمال. وكان الشيخ على علم تام بكلّ مايجري من قبل الجيش في شتى نواحي الجبل. وعلى صلة وثيقة بحركات جنوده، وما يقومون به من أعمال البطش والفتك والتخريب. حتى ان القومندان رساك - وهو يومئذ ليوتنان - كان يقذف بمن يشتبه بهم من اعلى برج صافيتا الذي يقارب ارتفاعه الخمسين مترا، بدون شفقة ولا رحمة. وكانت تلك الوسيلة طريقته الوحيدة في الاعدام. وحتى ان قرى كثيرة أحرقت بمجرد الاشاعات ان الشيخ لجأ اليها، واختبأ فيها. ومن هذه القرى قرية «عين الذهب والمعمورة - صافيتا» واللتين ماتزال آثار الحريق بادية فيهما إلى الآن.

وأدرك الشيخ ان لاخلاص للسكان من تعذيب الفرنسيين

وانتقامهم ، الا باستسلامه الى اعدائه الموتورين وايقن ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للتخفيف عن كاهل الشعب المرهق . واراحته مما يلقى من مظالم الاحتلال ، ومتاعب المحتلين .

وحينئذ ... ورحمة بالمضطهدين والمعذبين ، قرر الشيخ الاستسلام .

استسلام الشيخ

وكان قرار الاستسلام رهيباً جداً ، ليس على الفرنسيين فحسب ، بل على كل من له علم باخبار الثورة ، في كل صقع ومصر .

وارسل الشيخ من يخبر مستشار جبلة بهذا القرار ، ويستقدمه الى قرية « بشراغي » ليتم ذلك هناك . واضطربت اسلاك الهاتف وهي تنقل النبأ الهام الى مختلف المدن في هذه البلاد ، واسرع المستشار ، ومعه المرحوم احمد افندى الحامد ، متصرف مدينة جبلة في ذلك الحين.

واكبر المستشار ، ومرافقوه ، الشيخ وهم يرونه في هـذا المظهر الوقور ، والطلعة الاخاذة ، فادى له المستشار التحية العسكرية ، وانحنى أمامه في كثير من الخضوع الذي يقدمه الغربي لكل من يقوم بالواجبات وذهب الشيخ ، والمستشار معاً لمقابلة « الجنرال بيلوت » في اللاذقية .

حديث الشيخ مع الجنرال

واستقبل الجنرال سماحة الشيخ بما يليق به من الحفاوة والترحاب، وسأل الشيخ عن الدافع إلى تلك الثورة، والباعث على تلك الحرب الضروس. واختصر الشيخ الجواب فقال: «أنه حب الوطن».

وسأله الجنرال عما أخره عن الاستسلام فقال: لم يكن ذلك خوفاً من الاعدام، ولكن صوناً لكرامة الجهاد، ثم قال له:

«والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد، لما تركت القتال».

وأعجب الجنرال بهذه الصراحة ايما إعجاب، وأطراها على مسمع الشيخ ايما إطراء. وعرض عليه آخر الامر أن يقيم إلى جانبه في السراي، يشاطره الحكم، ويتحمل معه التبعات، ويتقاضى عن ذلك راتباً ضخماً لا يقلّ عن راتب الجنرال، فرفض الشيخ، واستغرب الجنرال منه ذلك وسأله عن السبب، فأجاب الشيخ في صراحته المعروفة: إن الله يقول في كتابه العزيز: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»

وانتفض الجنرال من الغيظ، وسأل الشيخ: هل نحن ظالمون؟ فقال

نعم ، لولا انكم ظالمون لما جئتم إلى هذه البلاد .

وأبلغه الجنرال آخر الامر أن الفرنسيين سيحترمون قرارهم بالعفو عنه ، فلا يمسونه بأي أذىً ، أو مكروه . ولكنه طلب من الشيخ ألا يغادر مكانه في الجبل إلا بأذن خاص من قيادة الجيش، ثم أرفقه بسكرتير خاص إلى عرينه في الجبل . وكان ذلك السكرتير — بالطبع — يطلع الفرنسيين على كل شاردة وواردة من حياة الشيخ .

عزلة الشيخ

وعاد الشيخ إلى عرينه في الجبل ، بعد أن استقبلته في الطريق جبلة وبانياس وطرطوس استقبال الملوك الفاتحين ، وانزوى فيه . وفرض على نفسه عزلة أشبه ماتكون بالسجن، أو الاسر. وانصرف إلى انسانيته المترفة ، يشبع غلواءها ؛ ويرضي طماحها ، وإلى تدينه العميق ، يعب من معينه الصافي ، ويغرق نفسه فيه .

ولم يخرج الشيخ من عزلته الهادئة الوادعة إلا في المواقف الوطنية الحاسمة، التي كانت تتطلب الجهر بمصالح البلاد. وحينما احتدمت معركة الوحدة والانفصال سنة ١٩٣٦ ، وبعدها حين تمزيق المعاهدة وتعليق

الدستور ، كان الشيخ أول من استنكر ذلك ، وهاجمه ، واحتج عليه . وأول من لبّى صرخة الضمير الوطني للقيام بثورة جارفة ضد الغاصب المحتل ، ولولا بوادر الحرب العالمية الثانية لخرجت الثورة من أغوارهذا الجبل صخابة عنيفة مدوية ، ولكن الحرب الاخيرة عاجلت الامة ، وحالت بينها وبين ما كانت تريد القيام به من عنف وعصيان .

ولما قام الفرنسيون سنة ١٩٤٤ باعتداءاتهم المنكرة على دمشق ، وهبت الامة غاضبة حانقة ثائرة كان الشيخ أول من لبّى نداء الامة الهدّار ، فأبرق إلى المراجع الرسمية يقول :

«سيوف المجاهدين تتململ في الاغماد ، ونفوسهم في غليان واضطراب لا نقبل أن تمتهن كرامة الأمة ، وتخرق حرمة الاستقلال . إننا للمعتدين بالمرصاد . وسيرى الظالمون أي منقلب ينقلبون » .

وكان لهذه البرقية الجبارة صدىً هائل ، ودوي عميق في سائر انحاء البلاد السورية . وقد انهالت البرقيات على الشيخ من جميع الجهات ، شاكرة محبذة مؤيدة . وأبرق إليه المرحوم السيد سعدالله الجابري ، رئيس المجلس النيابي حينئذ يقول : إن برقيتكم النبيلة هذه قد هزّت الضمير الوطني ، وأيقظت الشعور القومي ، وهيجت في نفوس المخلصين رغبة الجهاد ، وحب الاستشهاد » .

وجمع الشيخ من حوله المجاهدين والانصار ، وحاول الزحف على

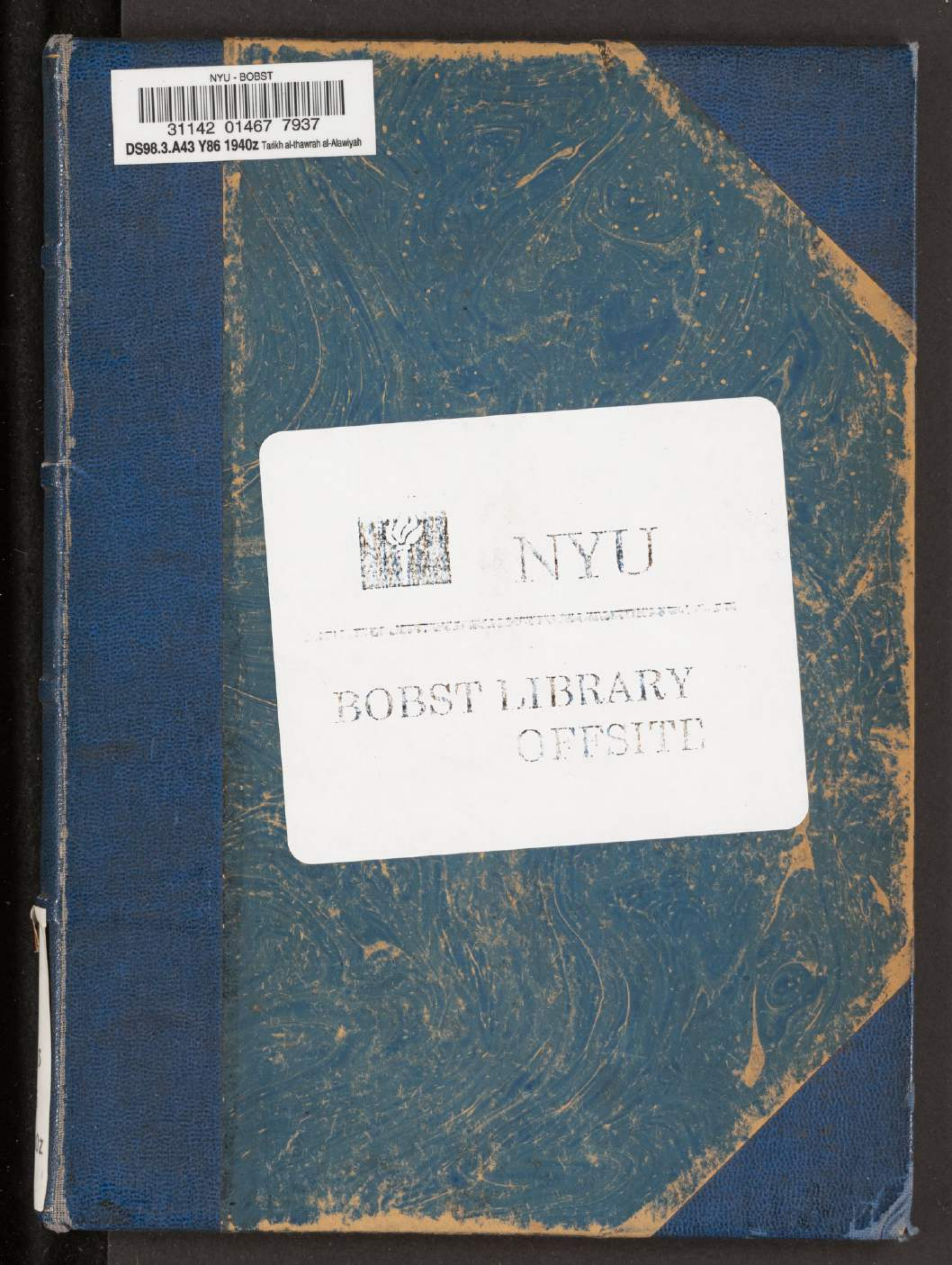
الثكنات العسكرية في مصياف، وبانياس، وطرطوس. ولكن ظروف المحافظة السياسية، آنذاك، ارغمت الحكومة الوطنية على ارسال السيد صبحي المحتشم، قائد سرية طرطوس حينئذ، لكي يطلع الشيخ على حراجة الموقف، وصعوبة الحال. وان المصلحة السياسية، والوطنية تقضيان بان لايحرك الشيخ ساكناً، وألا يقوم بأي عمل سلبي وكانت الحكومة الوطنية محقة في ذلك الموقف والطلب النبيلين. لان بعض الاقطاعيين في هذا الجبل كانوا يرغبون القيام بهذه الحركة من جانب الشيخ لكي يتخذوها ذريعة لاشعال نار الفتنة، واثارة الاضطراب في البلاد، ومعونة الفرنسيين في عدوانهم الصارخ للسوريين.

وهكذا اضطر الشيخ لارجاع السيف الى غمده من جديد وهو في حال التوثب والانتظار، وكافأته الامة بعض المكافأة على جهاده العظيم النبيل. فاقامت له حفلة تكريمية في اللاذقية، لا يزال الحديث عن روعتها يشغل الناس الى الآن.

وارتفع الشيخ على مناكب الخلود عن دنيا البشر. وأشرف من قمة المجد المؤثل على مواكب الناس — وهو في خلوده الدائم هازئ بالمغترين.

انتهى

ملاحظة : ان قراء هذا التاريخ مدينون للسيد محمد الحافظ صاحب مطابع ابي الفداء باصدار هذا الكتاب



NYU - BOBST
31142 01467 7937
DS98.3.A43 Y86 1940z Tarikh al-thawrah al-Alawiyah
NYU
BOBST LIBRARY
OFFSITE